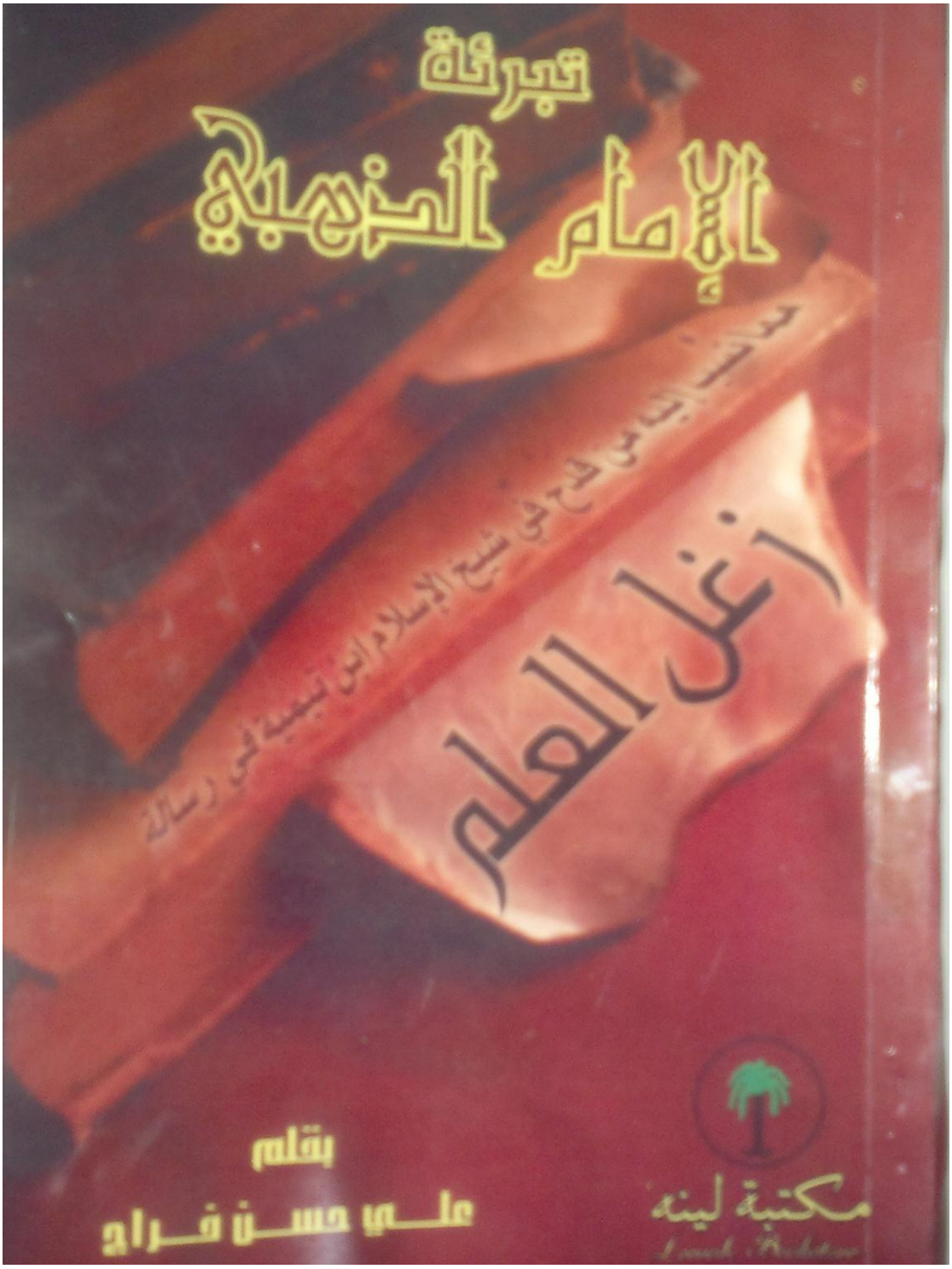
تبرئة
الإمام الذهبي
من كتاب سير أعلام النبلاء في شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة
أغلى العلم
بقلم
علي حسن فراج
مكتبة لينة

تبرئة الإمام الذهبي
مما نُسب إليه
من قدح في شيخ الإسلام ابن تيمية
في رسالة "زغل العلم"

بقلم

علي حسن فراج

راجعها وقدم لها

الشيخ الدكتور

خالد فوزي عبد الحميد

المدرس بدار الحديث بمكة المكرمة

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في كل زمانِ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصّرون بنوره أهلَ العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍ تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مجمعون على مخالفة الكتاب.

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

أما بعد..

فقد اطلعت على الرسالة الموسومة بـ(تبرئة الإمام الذهبي)، للأخ الشاب النابه: علي حسن فراج، وفقه الله تعالى، وقد وجدته أبان بالتحقيق العلمي الرصين أن ما جاء في كتاب (زغل العلم) من قدح وانتقاص لشيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله تعالى، إنما هو محض افتراء على الإمام الذهبي رحمه الله تعالى، والذي عرف بحبه لشيخ الإسلام ابن تيمية والذب عنه، وأن عبارات هذا النقد لا تتوافق مع ما عرف عن الإمام الذهبي من إنصاف وتحرٍ في العبارة، وأذكر عندما كنت طالباً في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وفي أحد المعارض التي أشرفت عليها الجامعة، وأظنه المتوافق مع أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، في عام (١٣٩٩هـ)، قابلت الأستاذ/ صلاح الدين المنجد الذي طبع كتاب " زغل العلم "، فوقفت معه وسألته عن صحة نسبة الكتاب، فقال هو صحيح النسبة، فقلت له كيف والتاج السبكي في طبقاته له تشنيع معروف على الذهبي لأجل حبه لابن تيمية، رغم أنه شيخه ويعترف له بالفضل العلمي عليه، فلو وجد مثلَ هذا لذكره وطار به، فقال: الذهبي مدح ابن تيمية ثم نصحه بهذا الكتاب. فقلت: ولمَ لمْ يطلع عليه السبكي؟ فسكت.

ومن يطالع ترجمة شيخ الإسلام فيما كتبه الموافقون والمخالفون، لن يجد واحدا منهم ينقل عن الذهبي إلا مدحاً وثناءً على شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد يقول قائل: فما يضير أن يكون الذهبي قد ذم شيخ الإسلام بعدما مدحه؟ وجواب هذا: أن الحق لا يضيره – فعلاً – مخالفة مَن خالف، لكن مَن يثبت مثل هذا الكلام عن الذهبي، فإنما يريد به التشويش على مَن يحب شيخ الإسلام بأنه كان موضعاً للرد والذم حتى ممن كان يمدحه كالذهبي، وأنه قد رجع عن مدحه له، فمَن يتعلق بالأسماء، ويعرف الحق بالرجال، فإنه يتزعزع عن الطريقة السلفية، ولا سيما وأنه من المعلوم والمشهور أن شيخ الإسلام ابن تيمية صار علماً على هذه الطريقة السلفية فإنه أظهرها، ونافح عنها، فالانتساب له انتساب لها، وهذا شأن الأئمة في كل زمان، ومن ذلك ما كان من نسبة مذهب أهل السنة إلى الإمام أحمد بعد المحنة، حتى قال ابن طاهر فيما نقله الذهبي في السير ، والتاج في طبقاته:

أَضْحَى ابْنُ حَنْبَلَ مِحْنَةً مَرْضِيَّةً * وَبِحُبِّ أَحْمَدَ يُعْرَفُ المُتَنَسِّكُ

وَإِذَا رَأَيْتَ لأَحْمَدٍ مُتَنَقِّصاً * فَاعْلَمْ بِأَنَّ سُتُورَهُ سَتُهَتَّكُ

وقد رأيت مَن بدا في عينه الشك لما وقف على رسالة "زغل العلم" ممن يعرف الحق بالرجال، ولم يحقق قول السلف بأدلته، وقد ذم أمثال هؤلاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في أثر كميل بن زياد النخعي المشهور، والذي أفاض ابن القيم في شرحه في مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: فإن علياً رضي الله عنه ذكر أقسام الناس في زمانه، وذكر أنه وجد منهم: (منقادا لأهل الحق لا بصر له في أحنائه ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة). فمثل هؤلاء يهتزون بمثل هذه الرسائل المكذوبة.

والأخ علي حسن فراج أعرفه منذ كان طالباً بدار الحديث الخيرية، وكان من الأوائل، ومن الحريصين على العلم وتتبعه، مع ما وهبه الله تعالى من فهم جيد، أحسبه كذلك، ورسالته هذه تنبئ عن فضله، والله حسيبه، وأسأل الله تعالى أن يوفقه لما يحب ويرضى، وأن ينفع به.

وصلي الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه/ **د. خالد بن فوزي حمزة**

المدرس بدار الحديث الخيرية

١٤٣١/٣/١١هـ

مقدمة

الحمد لله على آلائه ، وأصلي وأسلم على محمد وصحبه وآله.

أما بعد؛ فإن الله تعالى قد أكمل لهذه الأمة دينها وأتمم عليها نعمته بشريعة باقية خالدة صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان ، وما تُوفي النبي صلى الله عليه وسلم إلا والناس على بصيرة من أمر دينهم؛ فجناب التوحيد محمي، وسنام السنة عال.

ثم إن الأمر بدأ ينقص شيئا فشيئا ، فأخذت البدع في الظهور واحدة تلو الأخرى ، ولا تظهر بدعة وإلا وتنطفئ بها سنة من السنن حتى انطفأ كثير من السنن ، واجتُرئ على جناب التوحيد الذي هو أساس هذا الدين ومقصوده، وابتعد الناس عن دينهم كبعدهم الزمني عن عصر الرسالة أو أشد؛ فصار ما كان معلوما بالضرورة – عند الصحابة الأطهار والتابعين لهم بإحسان– أنه شرك وكفر بالله تعالى –كدعاء الأموات والاستغاثة بهم من دون الله تعالى = من القربات والطرق الموصلة إلى رضا الله سبحانه ، وصارت بعض الرسوم والتعبدات التي لم يشرعها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعرفها الصحابة الأطهار ولا التابعين لهم بإحسان = من العبادات الثابتة التي يواظب عليها بعض الناس ويستميتون في الدفاع عن مشروعيتها والعمل بها؛ فعظمت البلية حتى أضحت البدعة سنة والسنة بدعة، ينشأ على هذا الصغير ويهرم فيه الكبير ، ليصدق حديث النبي صلى الله عليه وسلم ((بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) [1].

وفي عصرنا هذا تظهر غربة الدين أشد ما تكون؛ بحيث إن من أنكر تلكم الشركيات ونبذ تلكم البدع والمحدثات، ودعا إلى الدين الصحيح الذي كان عليه خير القرون من الصحابة والتابعين، يصير عند كثير من الناس مبتدعا أو مجسما أو متطرفا أو وهابيا !!

ولأن الله– تعالى– قد تكفل بحفظ هذا الدين؛ فإنه – سبحانه– يبعث لهذه الأمة مَن يجدد لها دينها ويحيي ما اندرس من معالم دينها، فلم نزل نرى من الأئمة والعلماء الربانيين مَن

(١) أخرجه الإمام مسلم (١ / ٩٠) برقم (٣٨٩) ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين.

يقوم بدعوة الناس إلى العودة إلى الدين الصحيح الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار بلا تحريف ولا ابتداع ولا معارضة لشرع رب العالمين بأقوال الرجال وآرائهم.

وفي كل العصور تلاقي دعوات هؤلاء الأئمة الربانيين قبولا ونصرة من الغيورين على التوحيد ومحبي السنة والاقتداء ، وتلقى عنتا وحربا من أهل الإحداث والابتداع والإشراك، وهذه سنة الله تعالى ليبلو بعض الناس ببعض.

وكثيرا ما يأخذ أهل البدع من الطعن في أشخاص أولئك الأئمة سبيلا إلى الطعن في دعواتهم الإصلاحية ، وهو أمر قديم بدأته قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث قامت بحملات التشهير وبث الدعايا المغرضة من اتهامه بالسحر والجنون والكهانة؛ لصرف الناس عن دعوته ، وفَعَله الرافضة مع أبي بكر وعمر وأكثر الصحابة- رضي الله عنهم- فملأوا كتبهم بالكذب عليهم واختلاق الباطل في حقهم؛ ليظهروهم في صورة ينفر الناس منها، وفَعَله – كذلك- القبورية والطرقية- في عصرنا هذا – مع الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله تعالى، فشوهوا صورته وصورة دعوته ليصرفوا الخلق عنها.

ولما كان شيخ الإسلام ، الإمام ، العالم، العامل، الرباني : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨) من أولئك المجددين الذين عاشوا حياتهم في سبيل العودة بالأمة إلى ما كانت عليه في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الأخيار من إخلاص الدين لله تعالى وحماية التوحيد ونبذ الشركيات والتمسك بالسنن واطراح البدع والمحدثات= تعرض – هو أيضا – لحملات شرسة في عصره لتشويه سمعته لأجل صرف الناس عن دعوته، فكُذِب عليه ونسب إليه ما لم يقله، ورمي بالتجسيم والنصب وبغض النبي صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك من التهم المزيفة ، وشُهِّر به ، ورُفع أمره إلى السلطان مرات، وحبس وأُذوي مرارا.

ولم تقف حرب هذا الإمام الجليل عند حدود عصره ولم تنته بموته ؛ لأن الله تعالى – بفضله ورحمته- كتب لدعوته قبولا بين الناس ، فلم يزل ينتفع الناس بها إلى يومنا هذا ، فتلك أصداؤها تسمع إلى اليوم في أرجاء كثيرة من ديار المسلمين، ومن ثَمّ، لم تتوقف إلى يومنا هذا حملاتُ أرباب البدع والشركيات ، لتشويه صورته وصورة دعوته.

فكان من صنيع قبورية زماننا ومعطلة دهرنا أن جمعوا كل كلام فيه تنقص أو يُشَمُّ منه رائحة تنقص لهذا الإمام الهمام، وراحوا ينشرونه في منتدياتهم ويذيعونه في ملتقياتهم، ولم يفرحوا فيما جمعوا بشيء كفرحهم بما نُسِب إلى الإمام الذهبي (٧٤٨) في ذلك ؛ إذ إن الذهبي مؤرخ

سني وهو معاصر لابن تيمية ومن تلاميذه ، فطاروا بهذا الكلام دافعين به في صدور مخالفيهم من أهل السنة والتوحيد؛ لعلمهم أن معولهم الآن على كتب ذلك الإمام ومباحثه، فإذا ثلبوا الناقل وجرحوه كُفوا مَؤونة الرد على النقل والحجاج لأجل إبطاله.

بل رأيت من أمرهم في هذا عجبا؛ فلم يكتفِ أحدهم بنقل انتقاد الذهبي لابن تيمية ؛ بل وضع تعليقاتٍ له على الرسالتين اللتين جاء فيهما ذلك الانتقاص المزعوم، ولا غرض من وراء ذلك إلا الدندنة والطنطنة حول انتقاد الذهبي لابن تيمية [1].

ولعمى قلوبهم وهوى نفوسهم تركوا كل تراجم الذهبي لابن تيمية وهي في تسعة كتب ، سوى الترجمة التي أفردها له – كما سنعرف– وطاروا بهذين الموضعين المزوّرين على الذهبي؛ ليشفوا غيظ قلوبهم الحاقدة الحاسدة للرجل.

يا ناطح الجبلَ العالي ليَكْلِمَه أَشفق على الرأسِ لا تُشْفِق على الجبلِ

وهؤلاء– كدأب المبتدعة دائما– ما أنصفوا ، فإنهم إذا كانوا يحتجون بكلام منسوب للذهبي في هذين الموضعين المزوَرين عليه، فهلا أخذوا بكل كلام للذهبي في حق ابن تيمية في جميع المواطن التي ترجم له فيها! لكن الهوى يُعمي ويُصم ،وإنهم لو فعلوا لمجدوا ابن تيمية كما مجده تلميذه البار المحب: الذهبي!

أما الموضع الأول الذي جاء فيه انتقاص من الذهبي لشيخ الإسلام ابن تيمية فهو في الرسالة الموسومة بـ"النصيحة الذهبية " وأكثر المشتغلين بالعلم من أهل السنة في عصرنا على بطلان نسبة هذه الرسالة إلى الإمام الذهبي ، وقد ألف الشيخ محمد إبراهيم الشيباني رسالة في تفنيدها وكشف كذبها. وألف كذلك الأستاذ محمد عبد الله أحمد القونوي كتابًا فيها مبينًا انتحالها وتزويرها على الذهبي.

أما الموضع الثاني الذي جاء فيه انتقاص في حق شيخ الإسلام منسوبًا إلى الإمام

[1] - أسماها " التعليقات الجلية على النصائح الذهبية: تعليق على رسالتي الإمام الذهبي زغل العلم والنصيحة الذهبية". وليس من رابط بين الرسالتين إلا الحط على ابن تيمية والنيل منه. والله المستعان!

الذهبي فهو في رسالة "زغل العلم" التي هي موضع حديثنا في هذه الرسالة، وقد جاء فيها ص٣٨: " ...فلو كنت ذا صنعة لكنت بخير، تأكل من كسب يمينك، وعرق جبينك، وتزدري نفسك ولا تتكبر بالعلم، أو كنت ذا تجارة لكنت تشبه علماء السلف الذين ما أبصروا المدارس، ولا سمعوا بالجهات، وهربوا لما للقضاء طلبوا، وتعبدوا بعلمهم وبذلوه للناس، ورضوا بثوب خام وبكسرة، كما كان من قريب الإمام أبو إسحاق صاحب التنبيه، وكما كان بالأمس: الشيخ محيي الدين صاحب المنهاج، **وكما ترى اليوم: سيدي عبد الله بن خليل . وعلى كل تقدير احذر المراء في البحث، وإن كنت محقًّا فلا تنازع واحذر التكبر والعجب بعملك، فيا سعادتك إن نجوت منه كفافًا لا عليك ولا لك، فو الله! ما رمقت عيني أوسع علمًا، ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له: ابن تيمية، مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن، وقد تعبت في وزنه وفتشه حتى مللت في سنين متطاولة؛ فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا الكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار. فانظر كيف وبال الدعاوي ومحبة الظهور– نسأل الله تعالى المسامحة!– فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه، ولا أعلم منه، ولا أزهد منه، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم، وما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم، بل بذنوبه، وما دفعه الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون، فلا تكن في ريبٍ من ذلك** "انتهى الكلام في هذا الموضع.

وجاء في موضع آخر من الكتاب نفسه (ص٤٣)" **فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة وآراء الأوائل ومجازات العقول، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسنة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية، ولا والله تقربها! وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحط عليه والهجر والتضليل والتكفير والتكذيب بحق وبباطل، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منورًا مضيئاً على محياه سيما السلف ثم صار مظلمًا مكسوفًا عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجالًا أفاكًا كافرًا عند أعدائه، ومبتدعًا فاضلًا محققًا بارعًا عند طوائف من عقلاء الفضلاء، وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدين ومحيي السنة عند عوام أصحابه هو ما**

أقول لك " انتهى الكلام المتعلق بابن تيمية في هذا الموضع وفي الرسالة كلها.

وفي الصفحات الآتية سيرى القارئ الكريم أن نسبة هذا الكلام إلى الذهبي رحمه الله تعالى بمعزل عن الصواب والحق ، كما أنها بمنأى عن الإنصاف والعدل.

أسأل الله تعالى أن يرزقني التوفيق والسداد والإخلاص، كما أساله سبحانه أن يجزي خيرا كل من ساهم في إخراج هذه الرسالة! إنه ولي الإجابة.

وكتبه

علي حسن فراج

أبو الطيب الروبي

f.alihassan@yahoo.com

أهمية ما كُتِب في هذه الرسالة عند المبتدعة

كما أسلفت طار أعداء السنة بهذا النقد الموجود في كتاب" زغل العلم"؛ وذلك لأمرين: أولهما: شهرة نسبة الكتاب إلى الذهبي ؛ فيصعب التشكيك في ذلك، لا سيما وقد عزاه ابن حجر (ت ٨٤٦ هـ) والسخاوي (ت٩٠٢ هـ) وغيرهما للذهبي ، وهو ما حدا بكثير من المشتغلين بالعلم من أهل السنة إلى التسليم بنسبة الكتاب إلى الذهبي، ومحاولة التوفيق بين هذا الحط على شيخ الإسلام في هذه الرسالة والثناء العاطر الموجود في سائر التراجم، بحيث جعلوا ما في " زغل العلم " متقدمًا وما سواه من التراجم متأخرًا فيكون الذمُ كالمنسوخ الذي لا يُعمل به، وعَكَس المبتدعةُ الصورة فجعلوا الانتقاص والذم آخر الأمرين والناسخ في القولين كما سيأتي معنا.

وثانيهما: أن أمارات الوضع في الرسالة الموسومة بـ"النصيحة الذهبية" ظاهرة وكلها من أولها إلى آخرها مع ابن تيمية ، بخلاف كتاب "زغل العلم" فهو كتاب في العيوب الموجودة في كل طائفة من الطوائف المشتغلة بالعلم: من محدثين وفقهاء وقراء، وفي أثنائه وُجد هذا الحط على ابن تيمية ، مما يعني صعوبة التشكيك في نسبته إلى الذهبي .

ثم راح هؤلاء المبتدعة يضعون هذا الانتقاد الموجود في زغل العلم تحت عناوين خطافة براقة في منتدياتهم بالشبكة العنكبوتية ، وذلك مثل :

- **"الذهبي يكشف اللثام عن حقيقة ابن تيمية"**
- **"...حتى نضع ابن تيمية في الخانة التي جهَّزها له الذهبي"**
- **"ابن تيمية بأقلام أهل السنّة"**

وتحت هذا العنوان الأخير:

١- " لم أجد مَن هو أقرب منالًا وأصدق مقالًا في حق ابن تيمية من الذهبي الّذي أثنى عليه كثيرًا في تراجمه في عدة من كتبه وهو غير متهم عليه، حتى أنّه ألف كتابًا في سيرته وسمّاه (الدرة اليتيمية في السيرة التيمية) اطلع عليه ابن الوردي فأخذ منه، مختصرًا له ما كتبه من تاريخه عن ابن تيمية.

- ومثله:

٢- "وكان الذهبي وهو من معاصري ابن تيمية مدحه في أول الأمر، ثم لما انكشف له حاله قال في رسالته "بيان زغل العلم" والطلب ما نصه: ...." ثم ساقوا ما في الزغل.

- ومثله:

٣- "....هذا يؤيد وصف الذهبي له "في بيان زغل العلم والطلب" بالكبر وازدراء الأكابر وفرط الغرام في رئاسة المشيخة، ومعلوم أن الكبر من الكبائر يفسق فاعله" [(١)].

٤- وقال صاحب التعليقات على الزغل والنصيحة الذهبية ص ١٠: "الإمام الذهبي أثنى على الإمام ابن تيمية في تاريخ الإسلام وفي السير، ولكن قد ذكر أنه يخالفه في مسائل عقدية وفرعية ،وفي كتابه هذا أظهر خلاصة تجربته مع شيخه، فبين سبب الأمور التي وقعت لشيخه الإمام ابن تيمية، ولم يكن هذا الحكم والقرار إلا بعد تفتش وعناء، بل كان بعد مناصحات يتجلى ذلك في قول الذهبي: وقد تعبت في وزنه وفتشه حتى مللت في سنين متطاولة" انتهى.

فهذا مما يدلك على أهمية الانتقاد المرقوم في "زغل العلم" عند أولئك القوم، وكل هذا وغيره أوجد في نفسي رغبة ملحة في البحث والتفتيش عن ثبوت هذا الكلام عن الإمام الذهبي في حق شيخ الإسلام ابن تيمية.

(١)- كل هذا وغيره موجود في مواقع أهل البدع – لا كثرها الله – على الشبكة العنكبوتية.

تنبيه على الخلط بين رسالة "زغل العلم "و"النصيحة الذهبية"

خلط كثير من الناس بين الرسالتين: " النصيحة الذهبية " و" زغل العلم "؛ فظنَّوهما رسالةً واحدة ، وليس كذلك ؛ بل هما كتابان متغايران، فـ"زغل العلم "عبارة عن كتاب تكلم فيه صاحبه عن عيوب كل طائفة من علماء هذه الأمة ليتجنبها القارئ ، وأما "النصيحة الذهبية " فعبارة عن رسالة بعثها كاتبها إلى ابن تيمية ينصحه فيها بالكف عن الجدل ويحذره من الإصرار في الشذوذ عن جماعة أهل العلم!!

وقد وقع هذا لغير واحد من الأفاضل، وانظر مثالًا له هذا الجواب الصادر عن مركز الفتوى بأحد مواقع الشبكة العنكبوتية:

رقم الفتوى : ٣٠٥١١

عنوان الفتوى : لا تصح نسبة رسالة "بيان زغل العلم والطلب" إلى الإمام الذهبي

تاريخ الفتوى : ٠٥ صفر ١٤٢٤هجرى

السؤال:

بعض مجموعة من الطوائف الضالة أخبرتني بأن الذهبي انتقد شيخ الإسلام بشدة في رسالة تسمى "بيان زغل العلم والطلب" أنا لم أستطع أن أجد هذه الرسالة، لكن أنا أعرف أن الذهبي مدح شيخ الإسلام كثيرًا، فهل ذلك صحيح؟ وكيف أجيبهم؟

الفتوى :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فالرسالة المسماة "بيان زغل العلم والطلب" أو "النصيحة الذهبية" المنسوبة للإمام الذهبي والتي فيها حطٌّ كبير من شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله تعالى –لا تصح نسبتها إلى الإمام الذهبي، قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: والإمام الذهبي في دينه وورعه وخلقه يرتفع قدره عن مثل هذه الرسالة التي تنادي عباراتها على بطلانها. وقد ألف الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني رسالة في إبطال نسبة هذه الرسالة إلى الإمام الذهبي سماها "التوضيح الجلي في الرد

على النصيحة الذهبية المنحولة على الإمام الذهبي " ومما جاء فيها " أقول: إن هذه النصيحة لا تصح نسبتها إلى الإمام الذهبي لاعتباراتٍ عدة:

أولًا: لم يذكرها أحد ممن اعتنى بمؤلفات الذهبي رحمه الله تعالى.

ثانيًا: الذهبي تلميذ طالت ملازمته للشيخ ابن تيمية وحتى آخر أيامه إلى وفاته رحمه الله تعالى.

ثالثًا: جميع أقوال الذهبي في كتبه المعتمدة أو أقواله المنتشرة في الثناء على ابن تيمية والحفاوة به تنكث هذه الرسالة وتنادي ببطلان نسبتها إليه بل وتزويرها عليه.

رابعًا: هذه الرسالة بخط خصم ملد لابن تيمية رماه بسهم من القول مفزع، وهي شهادة مرفوضة شرعًا.

خامسًا: حتى الساعة لم نر دليلًا من دلائل التوثيق المعتبر يسند صحة نسبتها إليه، وهذا دونه خرط القتاد.

سادسًا: لم نر من نسبها للذهبي -رحمه الله تعالى- بعد ابن قاضي شهبة إلا عصريه الحافظ السخاوي --رحمه الله- وفي الوقت الذي لم يذكر فيه مستندًا للتوثيق لا نشك أن اعتماده على هذه النسخة لا يتجاوز زمنه، ومن مضلات عصريه ابن قاضي شهبة، ولهما التقاء في المشرب المناهض لدعوة ابن تيمية رحمه الله تعالى.

سابعًا: أما المعاصرون المثبتون لنسبتها إلى الذهبي فهم بين رجل يلتقي مع ابن قاضي شهبة مذهبًا ومشربًا، وآخر لم يأت بدليل، وأنى يكون القبول لقول عري عن الدليل.

ثامنًا: الشدة غير اللائقة بأهل العلم ومنهم الإمام الذهبي مع شيخه الإمام ابن تيمية. انتهى.

عن كتاب "كتب حذر منها العلماء" (٣٠٩/٢)

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبد الله الفقيه.

فانظر كيف كان السؤال عن رسالة " زغل العلم " وجاء الجواب عن " النصيحة الذهبية" !!

وقفة قبل البدء

لابد أن يعلم القارئ الكريم أن الداعي إلى التشكك في نسبة هذا الكلام للذهبي ، ثم الجزم بعدم ثبوته عنه، لم يكن منشؤه أن ابن تيمية معصومًا عند راقم هذه السطور لا ينبغي أن يُنتقد، أو أنه ينبغي أن يُكَذَّب جميع ما وُجِّه له من نقد، ولم يكن منشؤه كذلك أن الذهبي يستحيل أن يكون قد انتقد ابن تيمية .

كلا ! كل ذلك لم يكن؛ فابن تيمية بشر له عيوب وذنوب، وثبت أن ناسًا خالفوه، وناسًا عابوه، وأقواما بدّعوه، وآخرين كفروه، فليس سبيل إلى إنكار كونه قد انتقد.

وأما بالنسبة للذهبي فقد ثبت عنه– كما سيأتي– قوله: أنه يخالف ابن تيمية في مسائل في الأصول والفروع ، وثبت عنه أيضًا انتقاده لابن تيمية في أمور نقمها منه عندما ترجم له.

ولم يكن الحامل على هذا أيضا مجرد كون النقد لاذعًا فقد بالغ الإمام الذهبي– مع تحريه الإنصاف– في نقد رجال، رأى أن هذا هو الحق الذي ينبغي أن يقال فيهم، حتى زعم بعض المؤرخين أن الذهبي متحامل في نقده لفئة من الناس، وأنه لا يقبل قوله فيهم [1].

ولم يكن مستنده مجرد أن الذهبي معروف بميله لشيخ الإسلام وأنه من مادحيه، فالرجل قد يثني على الرجل في موضع وينتقده في آخر ، بل وفي مواضع، بل قد يجمع بينهما في موضع ، وهذه عادة الذهبي في تراجمه خصوصًا المطول منها، وقد وقع بعض هذا في حق شيخ الإسلام .

إذن: فما الذي حدا بي إلى التشكك في صحة نسبة هذا الكلام إلى الذهبي، ثم الجزم بعدم ثبوته عنه؟

هذا ما قد حضر أوانه ، فلنوضحه ، مستمدين العون من الله تعالى.

---

(١)– هذا رأي خليل بن كيكلدي العلائي صاحب "المراسيل"، وتاج الدين السبكي صاحب "طبقات الشافعية الكبرى"، انظر: "طبقات الشافعية الكبرى" (١٣/٢)،" ومقدمة سير أعلام النبلاء"، وكلاهما فيه من التعصب على مَن خالف الأشاعرة ما يكفي؛ لعدم اعتبار قولهما في مخالفيهما.

مناقشة ثبوت هذا النقد عن الذهبي

مناقشة هذا الانتقاد، والنظر فيه سيكون من جانبين :

١- من حيث نسبة رسالة " زغل العلم" برمتها للذهبي.

٢- من حيث نسبة هذا الكلام بخصوصه له.

أولًا : ما يتعلق بنسبة الرسالة برمتها للذهبي

تكرر في هذه الرسالة ذكر الشيخ المحدث :عبد الله بن خليل(ت ٧٧٧ هـ) مرتين، لكن بلقب(سيدي عبد الله بن خليل)، وعبد الله بن خليل هذا من شيوخ الذهبي لا شك ؛ فقد ذكره في "المعجم المختص"[(١)]، لكن الذي يسترعي الانتباه، أن مولد هذا الشيخ سنة (٦٩٤) ، فالذهبي أسن منه بإحدى وعشرين سنة ، فمولده سنة(٦٧٣)،وليس ببعيد أن يطري الذهبي مَن هو أصغر منه سنًّا ، لكن الغريب أن يطري هذا الرجل ويصفه بهذا الوصف المبالغ فيه،وغير المعهود من الذهبي دون كل مَن ذكره من الأئمة والشيوخ في الرسالة على جلالة قدرهم وخطير منزلتهم، مع أن الذهبي لم يصف الرجل بهذا الوصف الذي يومئ بالمبالغة في التقدير في موطنه اللائق به؛ أعني:عند ترجمته للرجل في "معجمه المختص"، ولا في "تذكرة الحفاظ" بل قال: **عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني، ثم المكي المقرئ الشافعي المحدث، الإمام القدوة الرباني بهاء الدين أبو محمد، قرأ بالروايات وأتقن المذهب وعني بالحديث ورحل فيه، وأخذ عن بيبرس العديمي بحلب، وعن ست الوزراء والدشتي بدمشق، وعن التوزري ورضي الدين بمكة، وعن طائفة بمصر، وكان حسن القراءة، جيد المعرفة، مليح المذاكرة، متين الديانة، ثخين الورع، مكثرًا للانقطاع والخمول، كبير القدر**

مولده سنة أربع وتسعين وستمائة (٦٩٤) بمكة [(٢)].

---

(١)-"معجم المحدثين" (ص ١٢٦).

(٢)-"معجم المحدثين"(ص١٢٦) ، وفي "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" (٧ / ١٢٠) ولد بمكة سنة أربع وتسعين وقيل: سنة خمس وتسعين وستمائة .

وبعد تتبع كتب الذهبي في التراجم مثل "تذكرة الحفاظ" و"المعجم المختص" ،"وتاريخ الإسلام"، و"سير أعلام النبلاء" (بالبحث عن طريق الحاسب) لم أجده يطلق كلمة: سيدي ولا سيدنا على أحد من شيوخه ومعاصريه عند ترجمته له، وما وقع هذا إلا مرة في "معجم المحدثين" (ص١٣٧)، قال في ترجمة عبد الرحمن بن عبد المحسن الواسطي:

عبد الرحمن بن عبد المحسن بن عمر بن شهاب الإمام المفتي محدث واسط وعالمها وكبيرها سيدي الشيخ تقي الدين أبو الفرج الواسطي الشافعي.

وقال عنه في معجم الشيوخ:

" عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن خليل ، أبو محمد القرشي، المكي الشافعي، المحدث مفتي مكة أبي عبد لله. ولد سنة أربع وتسعين وستمائة ، وسمع بمكة من الفخر التوزري والصدر بن مكتوم وعدة وقدم علينا طالب حديث ، فسمع من القاضي والمطعم الدشتي، وبحلب من بيبرس العديمي وطائفة، وتلا بالسبع على أبي محمد الدلاصي بمكة وعلى الصائغ إذ جاور .

وهو لون عجيب في الانجماع والانقباض على الناس وحسن السمت والتعفف، وهو فاضل قوي المذاكرة في الرجال ، كثير العلم ثم دخل في المنطق فالله يسلم ، ثم أقبل على شأنه" [1].

- فلابد من وقفة مع هذه الجزئية من الناحية التاريخية، فالرسالة كما يظهر لابد أن تكون قد كتبت في حياة ابن تيمية؛ لقوله" ... **فما أدركنا من أصحاب الحديث إلا طائفة: كقاضي ديار مصر وعالمها تقي الدين بن دقيق العيد، والحافظ الحجة شرف الدين الدمياطي، والحافظ جمال الدين بن الظاهري، والشيخ شهاب الدين بن فرح ونحوهم، وأدركنا من عكر الطلبة: شهاب الدين ابن الدقوقي، ونجم الدين ابن الخباز، والشيخ عبد الحافظ ونحمد الله في الوقت أناس يفهمون هذا الشأن، ويعتنون بالأثر: كالمزي، وابن تيمية، والبرزالي، وابن سيد الناس، وقطب الدين الحلبي، وتقي الدين السبكي، والقاضي شمس الدين الحنبلي، وابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وصلاح الدين العلائي، وفخر الدين بن الفخر وأمين الدين بن الواني وابن إمام الصالح ومحب الدين المقدسي وسيدي عبد الله بن خليل وجماعة سواهم فيهم العكر والغثاء الله يستر والمرء مع من أحب والسعيد من نهض وأهب وعلى الطاعة أكب والله الموفق والهادي"**[2] انتهى.

---

١) معجم شيوخ الذهبي، تحقيق : روحية السيوفي ص ٢٦٥

(١) "زغل العلم"(ص ٣٢) ومن الطريف الذي ينبغي أن يذكر: أن عبد الله بن خليل – رحمه الله تعالى– ممن أخذ عن شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ قال الحافظ :وقرأت بخط الحافظ صلاح الدين العلائي في ثَبَت شيخ شيوخنا

فأنت ترى أن صاحب هذا الكلام ذكر أنه لم يدرك من المشتغلين بالعلم من يستحق أن يكون من أصحاب الحديث حقًّا إلا الإمام ابن دقيق العيد والحافظ الدمياطي وابن الظاهري وابن فرح، وبعض عكر الطلبة كابن الدقوقي وابن الخباز ، ثم تكلم عن الأحياء فقال: " **نحمد الله أن في الوقت أناس يفهمون هذا الشأن ويعتنون بالأثر كالمزي وابن تيمية**...إلخ. فلو كانت هذه الرسالة مكتوبة بعد موت شيخ الإسلام ابن تيمية ، لكان ينبغي أن يجعله في زمرة من أدركهم من كبار الحفاظ أو من عكر الطلبة.

ولنفترض الفروض الممكنة حول وقت تأليف هذه الرسالة- ولا بد أن يكون ذلك في حياة ابن تيمية كما عرفنا- فإذا قلنا مثلا:

إن تأليفها كان قبل سنة (٧٠٠) ، وجدنا هذا غير معقول ولا ممكن ألبتة؛ لأن عمر "عبد الله بن خليل" وقتها دون (٦) سنوات، فكيف يكون محدثًا، ويصدر ذكره بكلمة :سيدي؟!

ويبعد كل البعد أيضًا أن تكون كتابتها قبل سنة(٧١٢) ؛ لأن سن (عبد الله بن خليل) إلى هذا التاريخ دون (١٨) عامًا، ثم إنه لم تتقدم للذهبي معرفة بالشيخ عبد الله بن خليل قبل ذلك التاريخ؛ لأن قدومه؛ أي: (عبد الله بن خليل)إلى دمشق كان سنة (٧١٢)، فإن قيل: فقد حج الذهبي سنة (٦٩٨)، وعبد الله بن خليل مكي، فيحتمل أن يكون لقيه وسمع منه. فيقال: هذا من المحال؛ لأن سن عبد الله بن خليل وقتها دون الأربع سنوات.

وأمثل ما يمكننا افتراضه إذا قلنا بصحة نسبة هذه الرسالة للذهبي أن كتابتها وقعت سنة (٧٢٨)؛ أي :في نفس السنة التي مات فيها ابن تيمية ، أو قبلها بيسير ، فيكون عمر الذهبي وقتها ٥١ عامًا أو دونها بقليل، وعمر عبد الله بن خليل ٣٤ عامًا أو دونها بقليل.

الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد بن خليل ما نصه: وسمع بهاء الدين المذكور على الشيخين شيخنا وسيدنا وإمامنا..... عمدة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، ركن الشريعة ذو الفنون البديعة أبو العباس ابن تيمية " انتهى "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" (١٨٦/١) وسننقله كاملًا في حينه. وعلى هذا فابن تيمية شيخ لعبد الله بن خليل كما هو شيخ للذهبي.

لكن هذا الافتراض ليس بأحسن حالًا مما قبله، وذلك لأمرين:

١- طبيعة السن

٢ – وقت اشتهار عبد الله بن خليل وصيرورته عالما زاهدا ورعا بحيث يصبح مثالًا لمن جمع بين العلم والعمل.

أولًا: طبيعة السن:

فلك أن تتصور مدى البعد في أن يطلق إمام كالذهبي ، يعد مؤرخ وقته ، وله من الشهرة والصيت في عصره ما له، هذا اللقبَ الكبير على هذا الرجل ، وسنه وقتئذٍ دون (٣٤) عاما ، ويخصه به دون غيره من أساطين شيوخه وأقرانه الذين ذكرهم جميعًا بأسمائهم!!

وإذا كنا نعلم أن الذهبي أسن من عبد الله بن خليل بإحدى وعشرين سنة، وافترضنا تلاقيًا ومعرفةً بين الرجلين في هذه المدة التي قدرناها أقرب شيء إلى الجائز في كتابة هذه الرسالة (ما بين سنة ٧١٢ وسنة ٧٢٨) فمَن منهما يمكن أن يكون شيخًا للآخر؟

نعم، تدلنا كتب التراجم على أن رواية الشيوخ عن التلاميذ كانت منتشرةً وشائعةً في ذلك العصر ، ولكن رحلة عبد الله بن خليل لطلب العلم بدمشق كان عمره فيها ١٨ عامًا، وعمر الذهبي إذ ذاك ٣٩ عاما وقد صار محدثًا معروفًا.

كنت قد كتبت هذا مستنتجا له قبل أن أقف على ترجمة عبد الله بن خليل في معجم الشيوخ للذهبي، وفيها:

".....ولد سنة أربع وتسعين وستمائة، وسمع بمكة من الفخر التوزري والصدر بن مكتوم وعدة، **وقدم علينا طالب حديث** فسمع من القاضي والمطعم الدشتي....."إلخ [1].

والحمد لله على توفيقه وتسديده.

(١) معجم شيوخ الذهبي ص ٢٦٥

ثانيًا: وقت اشتهار عبد الله بن خليل كعالم زاهد وَرِع :

فإنا إذا تتبعنا سيرة عبد الله بن خليل ورحلاته في طلب العلم، لم نجد فيها ما يدل على كون عبد الله بن خليل قد صار عالمًا مشهورًا بحيث يثني عليه الذهبي بمثل ذلك، ويخصه بما خصه به في هذه المدة التي قدرناها، بل شهرة الرجل بالزهد والورع والخمول والانقطاع عن الناس– كما ذكر الذهبي وغيره– كان بعد ذلك الوقت بلا ريب، وهاك البيان:

قال ابن الجزري (ت ٧٣٩ هـ) بعد أن ساق نسب الشيخ عبد الله بن خليل متصلًا إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه :

" **شيخنا الإمام العلامة الحافظ بهاء الدين أبو محمد بن الإمام شيخ الحرم رضي الدين، ولد بمكة سنة أربع وسبعين وستمائة** [(١)] **وسمع بها من الفخر عثمان التوزري وقرأ عليه الشاطبية وقرأ القراءات على الدلاصي والتقي الصائغ، وأكثر السماع من الرضى الطبري بمكة، ورحل إلى دمشق بعد الحج سنة اثنتي عشرة وسبعمائة فسمع من الدشني والتقي سليمان وابن الخرائطي، والموجودين بها إذ ذاك، ثم رحل إلى حلب فسمع من بيبرس العديمي وأحمد بن العجمي وغيرهما، ثم توجه إلى القاهرة والإسكندرية وأكثر من السماع...**"[(٢)].

ولما قدم عبد الله بن خليل إلى مصر قدمها كطالب علم أيضا ولازم الشيوخ ليأخذ عنهم.

قال ابن الملقن بعد أن ساق نسبه كاملًا:

---

(١) كذا (٦٧٤)، وهو تصحيف مخالف لما أجمعت عليه مصادر ترجمة عبد الله بن خليل من أنه ولد سنة (٦٩٤). انظر "تذكرة الحفاظ"، و "المعجم المختص"، و "الوافي بالوفيات" (٣٢٠/١٧)، و "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"(٧٣/٣)، و "السلوك لمعرفة دول الملوك" (٣٩٢/٤) ، و "ذيل تذكرة الحفاظ"(١ / ٤٧)، و" المنهل الصافي" (١٢٠/٧)، و " طبقات الأولياء" ص ٥٥٧.

(٢) "غاية النهاية في طبقات القراء" (١ /٤٠٣)

"... العلامة ذو الفنون، قطب وقته بهاء الدين.وولد بمكة سنة أربع وتسعين وستمائة، **وقدم مصر سنة إحدى وعشرين وسبعمائة**. واشتغل على الشيخ تقي الدين السبكي، وعلاء الدين القونوي، وأبي حيان، والشمس الأصفهاني. ثم عاد إلى مكة بعد سبع سنين وأقام بها سنتين. ثم قدم إلى مصر "(١).

وقال ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ):

"...وقدم القاهرة في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة فسمع بها من جماعة، وأخذ العلم بها عن العلامة القونوي الأصبهاني، وابن حيان، والتقي السبكي، وقرأ على التقي الصائغ بالروايات، وكان قرأ قبله بمكة، وصحب الشيخ ياقوت مدة، وتجرد وساح بديار مصر سنين لا يعرف له مقر، ثم قدم القاهرة وانقبض عن الناس، ولوطف حتى أسمع كثيرًا من مسموعاته، وكان يجلس للسماع يومين في الجمعة: يوم الجمعة ويوم الثلاثاء"(٢).

وفي طبقات الأولياء لابن الملقن (ت ٨٠٤ هـ) في ترجمة عبد الله بن خليل:

" أعاد بتدريس القلعة والمنصورية في الحديث وغيرهما، وتمشيخ بالخانقاه الكريمية بالقرافة. ومات يوم الأحد، ثالث جمادى الأولى، سنة سبع وسبعين وسبعمائة"(٣).

وقال المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) مؤرخًا لوفاته:

" ... في يوم الأحد ثالث جمادى الأولى، بخلوته من سطح جامع الحاكم، وكانت له جنازة عظيمة جدًّا، ومولده سنة أربع وتسعين وستمائة. كان فقيهًا شافعيًّا صاحب فنون، **قدم من مكة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة إلى القاهر**ة، وأخذ الفقه عن التقي السبكي والعلاء القونوي، والنحو عن أبي حيان، والأصفهاني، **وعاد إلى مكة بعد سبع سنين، ثم قدم منها بعد سنتين إلى البلاد الشامية**" (٤).

ولنتذكر الآن ثناء الذهبي في "معجمه المختص" بقوله:" وكان حسن القراءة، جيد المعرفة، مليح المذاكرة، متين الديانة، ثخين الورع **مكثرًا للانقطاع والخمول**، كبير القدر".

---

(٣) "طبقات الأولياء" ص ٥٥٧

(٤) "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" (٧ /١٢٢)

(٥) " طبقات الأولياء " ص ٥٥٧

(١) "السلوك لمعرفة دول الملوك" (٣٩٢/٤)

فيتبين لنا من كل ما سبق أن رحلة عبد الله بن خليل إلى الشام سنة (٧١٢)كانت رحلة طالب علم يأخذ عن الشيوخ لا رحلة عالم يأخذ عنه الناس، وأن الإقامة الأولى له في مصر التي بدأت سنة (٧٢١) كانت أيضا إقامة طالب علم يحصّل ويشتغل على الشيوخ ، وأن ذلك استمر لمدة سبع سنين، أي: إلى عام (٧٢٨) وهو العام الذي توفي فيه شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم رجع عبد الله بن خليل إلى مكة وأقام بها سنتين ، ثم رجع بعدها إلى مصر مباشرة أو إلى الشام ثم إلى مصر التي استقر بها وتصدر لإسماع الناس، ثم آثر الانقطاع والخمول وأثنى عليه الناس بذلك. ولا يتصور انقطاعه عن الناس في رحلته الأولى إلى مصر حين جاءها يطلب الحديث والقراءات، كما أنه لم يكن إذ ذاك عالما متصدرًا للإسماع والتدريس بحيث يكون – هو وحده من علماء عصره– مثالا لمن جمع بين العلم والعمل حتى يصفه الذهبي بقوله:" **وكما ترى سيدي عبد الله بن خليل الآن**".

فشأنك – أيها القارئ – ونسبة هذه الرسالة إلى الذهبي ، تولّ في ذلك ما تتولى، واذهب فيه إلى حيث شئتَ ، لكن عليك ألا تنسى إن حكمت أن تحكم بالقسط؛ فإن الله يحب المقسطين!

ثانيا: ما يتعلق بنسبة هذا الكلام بخصوصه للذهبي على فرض ثبوت نسبة الرسالة له

إذا سلمنا بثبوت نسبة كتاب "زغل العلم" للإمام الذهبي، فالذي لا يمكن التسليم به هو ثبوت نسبة انتقاد الذهبي لابن تيمية، فإذا كانت هذه الرسالة للذهبي فهذا الكلام المتعلق بشيخ الإسلام مقحم فيها عن عمدٍ وقصد ، وليس من كَتْب الذهبي بلا ريب.

وهذا من وجوه:

الوجه الأول

تراجم الذهبي لابن تيمية معروفة مشهورة ، ومدحه له وثناؤه عليه مستفيض، فهذا الكلام الذي فيه هدم لابن تيمية– إذا نسبناه للذهبي– فلا يخلو هذا من حالين:

- الأول : أن يكون هذا في مبدأ أمر الذهبي قبل ملازمته لابن تيمية، وتكون التراجم التي أثنى عليه فيها متأخرة.
- الثاني: عكس ذلك: أن يكون هذا الذم والقدح آخر الأمرين، وتراجم المدح والثناء متقدمة عليه.

ولابد من تتبع هذين الفرضين:

الافتراض الأول:

– أن ما وقع في هذه الرسالة متقدم، وقبل كمال معرفة الذهبي بابن تيمية وملازمته له وثنائه عليه[1]، فنقدر أن كتابته وقعت قبل سنة (٧١٠) [2]، ولكنا نجد هذا الفرض غير ممكن لأمور:

---

(١) قال بموجب هذا بعض الأفاضل : أي أن الذهبي رجع عما قاله في "زغل العلم" في التراجم الأخرى التي كانت بعد وفاة الإمام ابن تيمية رحمه الله.

(٢) كانت وفاة شيخ الإسلام سنة(٧٢٨).

– تقدم قبل قليل أنه قد ذكر الشيخ عبد الله بن خليل مرتين بتصدير(سيدي)، وجعله مثالًا للعالم العامل الذي ينبغي لطالب النجاة أن يقتدي به دون غيره من علماء الدنيا أمثال ابن تيمية الذي يحب الظهور ورئاسة المشيخة ، وسن (عبد الله بن خليل) في هذا الوقت دون١٦سنة.

فتبين أن هذا غير ممكن، إذ لو كان وقع مثله لنقل؛ لأنه كالخارق؛ أي: تصدر حَدث عمره ١٦ سنة للإقراء والتدريس بحيث يصير عَلمًا على من يجمع بين العلم والعمل.

– أن صاحب هذا الانتقاد الهادم لابن تيمية ذكر أنه قال هذا الكلام بعد أن تعب في وزنه وفتشه في سنين متطاولة، فكيف نقول : إن هذا النقد كان قبل معرفة الذهبي بابن تيمية وتأثره به وبمنهجه السلفي وثنائه العاطر عليه؟؟!

فليسقط هذا الافتراض من أصله، فإنه غير ممكن إذا قيل: إن هذه الرسالة وهذا الكلام للذهبي، ولننظر إذن في الافتراض الثاني.

الافتراض الثاني

أن يكون هذا النقد المظلم متأخرًا عن تراجم الثناء والمدح، فيكون بمثابة الناسخ لها ، ويكون هذا هو رأي الذهبي الأخير في ابن تيمية بعد تمحيص وتفتيش ، ويدل له قوله فيه :" فقد تعبت في فتشه ووزنه في سنين طويلة..." ، وأما ثناؤه عليه فلكونه كان مخدوعًا فيه[1].

وهذا الافتراض مثل سابقه في الإحالة وعدم الإمكان ؛ لأنا قدمنا أن تقدير وقت كَتْبِ هذه الرسالة قبل (٧١٠) غير ممكن ولا مقبول عقلًا ، فليس أمامنا إلا أن نقدر وقت كتابتها – تنزلا– بعد هذا التاريخ إلى سنة (٧٢٨) حيث مات ابن تيمية .

وها هنا تعترضنا معضلتان لا يمكننا دفعهما:

الأولي: – أنا افترضنا أن ثناء الذهبي ومدحه متقدم ، فينبغي أن تكون هذه التراجم كتبت جميعها قبل سنة (٧١٠) وهذا باطل ؛ لأن أكثرها كتب بعد موت ابن تيمية، كما يدل عليه سياقها.

الثانية: – أن حاصله أن الذهبي كان مغرمًا بابن تيمية إلى قبيل وفاته بسنوات، ثم انقلب عليه بهذا النقد في هذه الرسالة[2] ثم رضي عنه عند موته، فرثاه بقصيدة[1] وعاد يمدحه بعد ذلك دائما ، ولا يذكر عنه هذه الأخلاق القبيحة. بل يقول فيه:

---

(١) وهذا ما يحلو للكوثري أن يتعلق به ويدندن حوله، فإنه يزعم أن ثناء أمثال ابن كثير وابن عبد الهادي إنما كان؛ لأنهم وقتها كانوا شبابًا ففتنوا بابن تيمية ولم يعرفوه على حقيقته؛ فلا عبرة بكلامهم فيه، وأن ثناء أمثال ابن دقيق العيد وابن الزملكاني وغيرهم من الكبار كان قبل أن يقفوا على حقيقة أمره وباطن سره، وأنهم عادوا فذموه وعابوه. انظر:" ذيل تذكرة الحفاظ" (١/ ١٥٩، ٣٢٠).

ومما قال الدكتور(صلاح المنجد) عند إثباته نسبة "النصيحة الذهبية":

" ويبدو أنه كتبها في آخر عمره. ولم يثن أحد على الشيخ كثناء الذهبي عليه، لكنه انتقده بعد ذلك في بعض الأمور حبًّا له، وإشفاقًا عليه "انظر كتابه: " شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين "(ص١٤)

وفي مقالة ببعض المنتديات قال بعضهم في حق ابن تيمية: وكان الذهبي وهو من معاصري ابن تيمية مدحه في أوّل الأمر ثمّ لما انكْشف له حاله قال في رسالته " بيان زغل العلم والطلب "ثم ساق هذا النقد.

وسترى عما قريب بطلان ذلك عقلًا ونقلًا!!

(٢) في "سير أعلام النبلاء"(١٥ / ٨٨) نقل قول الأشعري: "اشهدْ عليَّ أني لا أكفر أحدًا من أهل القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات". ثم قال:

" الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد نادرة العصر، وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك، وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلاث مائة مجلد"(٢).

ويقول:

" فو الله! ما مقلت عيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه ،كان إمامًا متبحرًا في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفا بفرط الشجاعة

" قلت: وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفر أحدًا من الأمة، ويقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن " فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم.

مما يدلك على دوام الملازمة والاتصال بالشيخ إلى آخر حياته والتأثر به بعد مماته. وهذه الفروض التي نذكرها إنما هي من باب التنزل والإلزام وتوضيح المطلوب، وإلا فالذهبي عاش محبًّا ومتأثرًا بابن تيمية في حياة شيخه وبعد مماته .

(٣) يقول فيها:

يا موت خذ من أردت أو فدع ... محوت رسم العلوم والـــــورع

أخذت شيخ الإسلام وانفصمت ... عرى التقى واشتفى منه أولو البدع

غيبت بحرًا مفسرًا جبـلا ... برًا تقيًّا مجانب الشيـــــــــع

فإن يحدث فمسلم ثقة ... وإن يناظر فصاحب اللمـــــــع

وإن يخض نحو سيبويه يفـه ... بكل معنى من الفن مختـــــرع

وصار عالي الإسناد حافظـه ... كشعبة أو سعيد الضبعـــــــي

والفقه فيه فكان مجتـهدا ... وذا جهادٍ عارٍ من الجـــــــزع

وجوده الحاتمي مشتـهر ... وزهده القادري في الطمـــــــــع

أسكنه الله في الجنان ولا ... زال عليًّا في أجمل الخلـــــــع

مع مالك الإمام وأحمد ... والنعمان والشافعي والخلعـــــي

مضى ابن تيمية وموعده ... مع خصمه يوم نفخة الفـــــزع

انظر :" الرد الوافر"(ص٣٥).

(١)-" تذكرة الحفاظ" (٤ / ١٤٩٦).

والكرم، فارغا عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه "[1].

ويقول:

"كان آية في الذكاء وسرعة الإدراك، رأسًا في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحرًا في النقليات؛ هو في زمانه فريد عصره: علمًا وزهدًا وشجاعةً وسخاءً وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وكثرة تصانيف ..."إلى أن قال :

" **وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي،** فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن ترصع في مجلدتين، وهو بشر من البشر له ذنوب، فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنته، فإنه كان **رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين،** وكان رأسًا في العلم يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبالغةً ما رأيتها ولا شاهدتها من أحدٍ ولا لحظتها من فقيهٍ "[2].

فمعنى هذا: أن الذهبي في عقله شيء حيث لازم شيخ الإسلام دهرًا وهو يمدحه ويطريه، ثم انقلب عليه فجأة بهذا النقد الذي بالزغل، ثم رجع إلى ما كان عليه من إطرائه والذب عن حياضه، حتى عرف عند بعض المؤرخين بأنه متحامل على خصومه!!!

وفي هذا من التخريف ما يعرفه كل عاقل.

وحيث قد انتهى بنا تتبعنا للفروض الممكنة عقلًا في وقت كتابة هذا النقد الهدام إلى هذا المقام الذي يراه القارئ الفطن، وعرفنا عدم سواغ عزوه للذهبي بكونه وقع منه أولًا، كما يدندن حوله بعض أهل السنة ممن يثبت نسبة هذا النقد للذهبي، وعدم سواغ كونه وقع آخرًا كما يدندن حوله أهل البدع الذين طاروا بهذا الانتقاد– أقول: نقدم الآن برهانا مبينا وحجة دامغة على بطلان نسبة هذا النقد للذهبي، وذلك بنقلنا ترجمتين مطولتين ترجمهما الذهبي لابن تيمية إحداهما في حياته[3] والأخرى بعد مماته ، وننقل ما فيهما من

(٢) " المعجم المختص" (ص ٢٥).

(١) " العقود الدرية"(ص٣٨).

(٢) مستند ذلك من الترجمة قوله فيها:" وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قام عليه الدليل"

مدح وقدح وإطراء وإغضاء ، ونقف بعدهما عند ما جاء فيهما من حقائق نخلص إليها تظهر بما لا يدع مجالًا للشك براءة الذهبي من هذا الكلام الأثيم في حق ذلكم الإمام العظيم ، رحم الله الجميع!

١ – الترجمة التي كتبت في حياة ابن تيمية[١]:

وهذه الترجمة لطولها سأنقل أكثرها مما يتعلق بما نحن بصدده ملتزمًا بنقل النقد جنبًا إلى جنب مع المدح، ولا أهمل أي عبارة يفهم منها النقد والقدح.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي :

" تقي الدين الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية، الإمام الحبر البحر العلم الفرد، شيخ الإسلام نادرة العصر: تقي الدين أبو العباس أحمد الحراني الحنبلي نزيل دمشق .

ولد بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ، وهاجر والداه به وبإخوته عند جور التتار، فسار بهم وبالكتب على عجلة؛ لعدم الدواب، وكاد العدو أن يلحقهم ، ووقفت العجلة، فابتهل إلى الله واستغاث به ، فنجوا وسلموا، وقدموا

وقوله: "وهو الآن يلقي الدرس ، ويقرئ العلم، ولا يفتي إلا بلسانه". ومن مستنداته من خارج الترجمة :قال ابن عبد الهادي في "العقود الدرية" (ص40) : عندما نقل بعض ما جاء في هذه الترجمة؛ قال الذهبي في ترجمة طويلة للشيخ قبل وفاة الشيخ بدهر طويل " ثم ساق بعض ما في "الدرة اليتيمية".

(١) هذه الترجمة هي "الدرة اليتيمية في السيرة التيمية" أفردها الذهبي في سيرة شيخه ابن تيمية ، وقد كتبها في حياة شيخه كما سترى من سياقها، وأكمَلَها بعد موته حيث ذكر جنازته ووفاته ، وهي عادة الذهبي في تراجمه كما ذكر ذلك محقق "الدرة اليتيمية" التي طبعت ضمن كتاب "المسائل والأجوبة" بتحقيق أبي عبد الله حسين عكاشة، وقد ذكر المحقق أن هذه الترجمة نقل منها ابن عبد الهادي في "العقود الدرية" و"مختصر طبقات أصحاب الحديث"، وابن رجب في" طبقات الحنابلة"، وابن العماد في "الشذرات"، وابن حجر في "الدرر الكامنة"، وصديق حسن خان في " أبجد العلوم"، وغيرهم. لكن صديق خان عزى ما نقل منها إلى "الدرة اليتيمية" ، في حين أن ابن رجب قد عزى ما نقله إلى " التاريخ الكبير للذهبي". انتهى

قلت: كأن هذا التاريخ ليس هو " تاريخ الإسلام " المطبوع والمتداول الآن، فإنه ليس فيه شيء من هذه الترجمة.

دمشق في أثناء سنة سبع وستين، فسمعوا من الزين بن عبد الدائم نسخة ابن عرفة، وغير ذلك، ثم سمع شيخنا الكثير من ابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، والمحدث ابن عساكر – أصحاب الخشوعي– ومن الجمال يحيى بن الصيرفي، وأحمد بن أبي الخير سلامة، والقاسم الإربلي ، والشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر، وأبي الغنائم علان ، وخلق كثير.

وسمع مسند أحمد مرات، والكتب الكبار والأجزاء، وعني بالحديث ونسخ جملة صالحة، وتعلم الخط والحساب في المكتب ، وحفظ القرآن وأقبل على التفسير إقبالًا كليًا حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك ، هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة ، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه ونشأ في تصونٍ تامٍّ، وعفافٍ وتألهٍ وتعبدٍ، واقتصادٍ في الملبس والمأكل.

وكان يحضر المحافل [1] في صغره ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم، فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره وبَعُد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجُمَع على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم؛ وكذا كان الدرس بتؤدةٍ وصوتٍ جهوريٍّ فصيح ، فيقول في المجلس أزيد من كراسين أو أقل ، ويكتب على الفتوى في الحال عدة أوصال بخط سريع على غاية التعليق والإغلاق.

قرأت بخط شيخنا العلامة: كمال الدين علم الشافعية في حق ابن تيمية [2] : كان إذا سئل عن فنٍّ من العلم، ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم

---

(١) في "العقود الدرية" :"المدارس والمحافل".

(٢) وفاة كمال الدين ابن الزملكاني قبل وفاة ابن تيمية بعام وهذا الكلام كتبه في سنة بضع وتسعين ، كما ذكره ابن رجب عن الذهبي في "ذيل طبقات الحنابلة"، وقد مدحه بكلام آخر أفضل من هذا، ثم انحرف عليه وعاداه حتى وفاته (سنة ٧٢٧) .

من العلوم- سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها- إلا فاق فيه أهله [1] واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها.

قلت: وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة فنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه، وهو عجب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي، وأما التفسير فمسلم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن- وقت إقامة الدليل بها على المسألة- قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تحير فيه؛ **ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه، يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالًا عديدةً وينصر قولًا واحدًا موافقًا لما دل عليه القرآن والحديث** ويكتب في اليوم والليل من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل نحوًا من أربعة كراريس أو أزيد، وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة وله في غير المسألة مصنف مفرد في مجلد "

وذكر الذهبي بعض تصانيفه ثم قال:

"وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة وصنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة.

ولما كان معتقلًا بالإسكندرية التمس منه صاحب سبتة أن يجيز له مروياته وينص على أسماء جملة منها، فكتب في عشر ورقات جملة من ذلك بأسانيدها من حفظه بحيث يعجز أن يعمل بعضه أكبر محدث.

وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قام عليه الدليل عنده.

---

(٣) في "العقود الدرية" : " أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين.".

ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها.

وأطلق عباراتٍ أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشأم قيامًا لا مزيد عليه، وبدَّعوه وناظروه وكابروه، **وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكرة، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، والتعظيم لحرمات الله؛** فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقائع شامية ومصرية وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة **فينجيه الله؛ فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية** وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا بلسانه وقلمه، وأما شجاعته: فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال. فلقد أقامه الله في نوبة غازان والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين وبقطلوشاه وببولاي، وكان قبجق يتعجب من إقدامه وجرأته على المغول، وله حدة قوية تعتريه في البحث حتى كأنه ليث حرب.

وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله! ما رأى هو مثل نفسه في العلم، وفيه قلة مداراة وعدم تؤدةٍ غالبًا، والله يغفر له. وهو فقير لا مال له ، وملبوسه كأحد الفقهاء – فرجية ودلق وعمامة– يكون قيمة ثلاثين درهما ، ومداس ضعيف الثمن ، وشعره مقصوص وعليه مهابة ، وشيبه يسير، ولحيته مستديرة، ولونه أبيض حنطي اللون ، وهو ربع القمة ، بعيد ما بين المنكبين، كأنه عيناه لسانان ناطقان ، ويصلي بالناس صلاةً لا يكون أطول من ركوعها وسجودها، وربما قام لمن يجئ من سفر أو غاب عنه ، وإذا جاء فربما يقومون له، والكل عنده سواء ؛ فإنه فارغ من هذه الرسوم ، ولم ينحن لأحدٍ قط ، وإنما يسلم ويصافح ويبتسم ، وقد يعظم جليسه مرة ، ويهينه في المحاورة مرات".

ثم ذكر الذهبي ما جرى لشيخ الإسلام من محنةٍ عندما كتب الحموية وما أعقبها من محنٍ أخرى مع القضاة المصريين والشاميين ،إلى أن قال فيما يشبه النقد[1]:

" وجرت له أمور ومحن ما بين ارتفاع وانخفاض، وفتر سوقه، ودخل في مسالك كبار لا تحتملها عقول أبناء زمانه ولا علومهم، كمسألة التكفير في الحلف في الطلاق، ومسألة أن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة ، وأن الطلاق في الحيض لا يقع ، وصنف في ذلك تواليف لعلها تبلغ أربعين كراسًا ، فمنع من ذلك من الفتيا، وساس نفسه سياسةً عجيبةً ، واستبد برأيه، وعسى أن يكون كفارة ذلك كفارة له ، فالله يؤيده بروح منه ويوفقه لمراضيه. وهو الآن يلقي الدرس ويقرئ العلم ولا يفتي إلا بلسانه ، ويقول: لا يسعني أن أكتم العلم. وله شهامة وقوة نفس توقعه في أمور صعبة ويدفع الله عنه ، وله نظم قليل وسط ولم يتزوج ولا تسرى ، ولا له من المعلوم إلا شيء قليل وإخوة تقوم بمصالحه، ولا يطلب منهم غداءً ولا عشاءً في غالب الوقت. **وما رأيت في العالم أكرم منه ولا أفرغ منه عن الدنيا والدرهم، بل لا يذكره، ولا أظنه يدور في ذهنه، وفيه مروءة وقيام مع أصحابه وسعي في مصالحهم، وهو لونٌ عجيبٌ ونبأٌ غريبٌ.**

وهذا الذي ذكرته من سيرته فعلى الاقتصاد ، وإلا فحوله أناس من الفضلاء يعتقدون فيه وفي علمه وزهده ودينه وقيامه في نصر الإسلام بكل طريق أضعاف ما سقت ، وثَمَّ أناسٌ من أضداده يعتقدون فيه وفي علمه ، لكن يقولون :فيه طيش وعجلة وحدة ومحبة للرياسة، وثم أناس - قد علم الناس قلة خيرهم وكثرة هواهم - ينالون منه سبًّا وكفرًا ، وهم إما متكلمون ، أو من صوفية الاتحادية ، أو من شيوخ الزوكرة، أو ممن قد تكلم هو فيهم فأقذع وبالغ ، فالله يكفيه شر نفسه، وغالب حطه على الفضلاء أو المتزهدة فبحق ، وفي بعضه هو مجتهد."

ثم ذكر الذهبي مذهب الشيخ في العذر بالجهل وقيامه في كشف أحوال الدجالين ،

---

(١) كان بالوسع كتمان هذا النقد عن القارئ والضرب عنه صفحًا ، فلا ننقل إلا ما كان في جانبنا وهو(المدح) ، كما يفعله أهل البدع حين ينقلون ما لهم دون ما عليهم في مواطن الجدال والنزاع، ولكننا ننقل المدح والقدح – إن وجد– جنبًا إلى جنب؛ لنصل إلى الحق ، وبالله التوفيق.

وعلاجه لكثير من المصابين بالصرع ، ثم إنه أكمل هذه الترجمة بعد موت الشيخ فذكر وفاته وجنازته.

ونحن وقد خرجنا الآن من هذه الترجمة برأي الذهبي في الرجل وقد حوى الثناء والنقد ، والإطراء والإغضاء، وذكر المحاسن والمآخذ، ينبغي لنا أن نقف وقفةً متأنيةً مع ما ذيل به الذهبي رأيه في ابن تيمية ؛ أعني قوله:" **وهذا الذي ذكرته من سيرته فعلى الاقتصاد ....**"**إلخ**، وحق لنا أن نقف معه بتأنٍّ وتروٍّ؛ فقد بيّن أن ما قاله في هذا الرجل هو على سبيل القصد والتوسط ومجانبة الغلو فيه والانحراف عنه، وأنه لم يسلك فيه سبيل المغالين من أتباعه ومحبيه ، ولا المجحفين من أعدائه ومبغضيه، وأن أتباعه والمغالين فيه يعتقدون في الرجل أضعاف ما ذكر الذهبي ، وأن أضداده والمبغضين له، فبعضهم وإن أقر بعلمه إلا أنه يرى فيه طيشًا وعجلةً **وحبًّا للرياسة** ، وبعضهم يغلو فيميل إلى تفسيقه وتكفيره.

فلم يذكر الذهبي في هذا المقام – مقام الترجمة المفردة المطولة، وهو الأليق والأنسب من مقام رسالة صغيرة في موضوع بعيد عن ابن تيمية وترجمته ووزنه والحكم عليه كرسالة "زغل العلم" – لم يذكر أن ابن تيمية متكبرٌ أو معجبٌ أو محبٌّ للرياسة، فكيف يقبل عاقل فضلًا عن طالب علم وعالم أن يسلم بصحة نسبة النقد الذي بالزغل للذهبي؟

فكيف إذا انضم إلى ذلك تنصيص الذهبي على أن تهمة ابن تيمية بحب الرياسة هي قالة أعدائه ومبغضيه، وليس الذهبي منهم، كما أنه ليس من المغالين فيه؟!

٢-الترجمة التي كتبها بعد موته

قال رحمه الله تعالى بعد أن ساق نسبه كاملًا:

"ابن تيمية، الشيخ الإمام العالم المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة والذكاء المفرط، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن العالم المفتي شهاب الدين عبد الحليم، ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات، عبد السلام مؤلف "الأحكام"، ابن عبد الله بن أبي القاسم الحراني، ابن تيمية هو لقب لجده الأعلى.

مولده في عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وست مئة بحران، وتحول به أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبع وستين، عند جور التتار؛ منهزمين في الليل، يجرون الذرية والكتب على عجلة؛ فإن العدو ما تركوا في البلد دواب سوى بقر الحرث، وكلت البقر من ثقل العجلة، ووقف الفرار، وخافوا من أن يدركهم العدو، ولجأوا إلى الله، فسارت البقر بالعجلة، ولطف الله تعالى، حتى انحازوا إلى حد الإسلام.

فسمع من: ابن عبد الدائم، وابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، وابن أبي الخير، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين، والقاسم الإربلي، وابن علان، وخلق كثير، وأكثر وبالغ.

وقرأ بنفسه على جماعة وانتخب، ونسخ عدة أجزاء، و"سنن أبي داود"، ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد، ومن علماء الأثر، مع التدين والنبالة، والذكر، والصيانة.

ثم أقبل على الفقه، ودقائقه وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف؛ حتى كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجح ويجتهد، وحق له ذلك؛ فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه؛ فإنني ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضارًا لمتون الأحاديث، وعزوها إلى الصحيح أو إلى المسند أو إلى السنن منه؛ كأن الكتاب والسنن نصب عينيه، وعلى طرف لسانه، بعبارةٍ رشيقةٍ، وعينٍ مفتوحةٍ، وإفحامٍ للمخالف. وكان آيةً من آيات الله تعالى في التفسير، والتوسع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين.

وأما أصول الديانة ومعرفتها، ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة؛ فكان لا يشق فيه غباره، ولا يلحق شأوه.

هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل، والفراغ عن ملاذ النفس، من اللباس الجميل، والمأكل الطيب، والراحة الدنيوية.

ولقد سارت بتصانيفه الركبان، في فنون من العلم وألوان، لعل تواليفه وفتاويه في الأصول والفروع والزهد والتفسير والتوكل والإخلاص وغير ذلك، تبلغ ثلاث مائة مجلد، لا بل أكثر.

وكان قوَّالًا بالحق، نهَّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوةٍ وإقدام، وعدم مداراة الأغيار. ومن خالطه وعرفه، قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومن نابذه وخالفه، ينسبني إلى التغالي فيه، وليس الأمر كذلك. مع أنني لا أعتقد فيه العصمة، كلا! فإنه مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين، بشر من البشر تعتريه حدَّةٌ في البحث، وغضبٌ وشظفٌ للخصم؛ تزرع له عداوةً في النفوس، ونفورًا عنه.

وإلا والله فلو لاطف الخصوم، ورفق بهم، ولزم المجاملة وحسن المكالمة؛ لكان كلمة إجماع؛ فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، معترفون بشفوفه وذكائه، مقرون بندور خطئه.

لست أعني بعض العلماء الذين شعارهم وهجيراهم الاستخفاف به، والازدراء بفضله، والمقت له، حتى استجهلوه وكفروه ونالوا منه، من غير أن ينظروا في تصانيفه، ولا فهموا كلامه، ولا لهم حظ تام من التوسع في المعارف، والعالم منهم قد ينصفه، ويرد عليه بعلم.

وطريق العقل السكوت عما شجر بين الأقران. رحم الله الجميع.

وأنا أقل من أن يُنبّه على قدره كلمي، أو أن يوضح نبأه قلمي؛ فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه، مقرون بسرعة فهمه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، وأن جوده حاتمي، وشجاعته خالدية.

ولكن قد ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالًا؛ منصفهم فيها مأجور، ومقتصدهم فيها معذور، وظالمهم فيها مأزور، وغاليهم مغرور، وإلى الله ترجع الأمور، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، والكمال للرسل، والحجة في الإجماع. **فرحم الله امرأً تكلم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدةٍ وفهْمٍ، ثم استغفر لهم، ووسع نطاق المعذرة، وإلا؛ فهو لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.**

وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته؛ فقد أقررت على نفسك بالهوى، وعدم الإنصاف !

وإن قلت: لا أعذره؛ لأنه كافرٌ عدوٌّ لله تعالى ورسوله! قال لك خلقٌ من أهل العلم والدين: ما علمناه والله إلا مؤمنًا محافظًا على الصلاة، والوضوء، وصوم رمضان، **معظِّمًا**

للشريعة ظاهرًا وباطنًا. لا يؤتى من سوء فهم، بل له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم، فإنه بحر زخار، بصير بالكتاب والسنة، عديم النظير في ذلك، **ولا هو بمتلاعب بالدين؛ فلو كان كذلك، لكان أسرع شيءٍ إلى مداهنة خصومه، وموافقتهم، ومنافقتهم.**

ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن، أو بالحديث، أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث؛ أسوة من تقدمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها؛ فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب؛ فله أجران.

وإنما الذم والمقت لأحد رجلين: رجلٍ أفتى في مسألة بالهوى، ولم يُبْدِ حجةً، ورجلٍ تكلم في مسألة بلا خميرةٍ من علم، ولا توسعٍ في نقل؛ فنعوذ بالله من الهوى والجهل.

ولا ريب أنه لا اعتبار بذم أعداء العالم؛ فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف والقيام عليه. ولا اعتبار بمدح خواصه والغلاة فيه؛ فإن الحب يحملهم على تغطية هناته، بل قد يعدوها محاسن. وإنما العبرة بأهل الورع والتقوى من الطرفين، الذين يتكلمون بالقسط، ويقومون لله، ولو على أنفسهم وآبائهم.

فهذا الرجل لا أرجو على ما قلته فيه دنيا ولا مالًا ولا جاهًا بوجه أصلًا، مع خبرتي التامة به، ولكن لا يسعني في ديني، ولا عقلي أن أكتم محاسنه، وأدفن فضائله، وأبرز ذنوبًا له مغفورةً في سعة كرم الله تعالى وصفحه، مغمورةً في بحر علمه وجوده، فالله يغفر له، ويرضى عنه، ويرحمنا إذا صرنا إلى ما صار إليه[1].

مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية[2]، قد أبديت آنفًا أن خطأه فيها مغفور، بل قد يثيبه الله تعالى فيها على حسن قصده، وبذل وسعه، والله الموعد. مع أني قد أوذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده؛ فحسبي الله!.

---

(١) وهذا نص في كون كتابة هذه الترجمة بعد موته، بجانب ما جاء في آخرها من ذكر وفاته.

(٢) قوله "مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية "

أما الفرعية: فسبيلها مستبين، وأما الأصلية : فلا يلزم من هذا الخلاف تضليلنا لأحدهما كما أراده بعض أهل البدع، فإن المسائل الأصلية ليست على رتبة واحدة من الظهور والقطعية ، والمجتهد مغفور له خطؤه إن استفرغ وسعه في الوصول إلى الحق كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع من كتبه ، وذكره الذهبي ها هنا، على أنه لا بد من الإشارة إلى أن

وكان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة. تعتريه حدة، ثم يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء. ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثته بالله تعالى، وكثرة توجهه. **وقد تعبت بين الفريقين: فأنا عند محبه مقصرٌ، وعند عدوه مسرفٌ مكثرٌ، كلا والله!**

توفي ابن تيمية إلى رحمة الله تعالى معتقلًا بقلعة دمشق، بقاعة بها، بعد مرض جد أيامًا، في ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة، سنة ثمانٍ وعشرين وسبع مئة.

وصلي عليه بجامع دمشق عقيب الظهر، وامتلأ الجامع بالمصلين كهيئة يوم الجمعة، حتى طلع الناس لتشييعه من أربعة أبواب البلد، وأقل ما قيل في عدد من شهده خمسون ألفًا، وقيل أكثر من ذلك، وحمل على الرؤوس إلى مقابر الصوفية، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين، رحمهما الله تعالى وإيانا والمسلمين" انتهى

وحُقَّ لنا أيضًا أن نقف مع هذه الترجمة كما وقفنا مع نظيرتها السابقة:

فأقول:

مع إغضائنا الطرف عن هذا الإطناب في المدح والثناء ، وكيف يقال مثله في حق رجل مريض بأقبح أمراض القلوب التي قد تصل بصاحبها إلى الكفر: "العجب والكبر وفرط الغرام

أمهات المسائل الأصلية لا يوجد فيها خلاف بين ابن تيمية والذهبي إذ هما على منهج السلف فيها؛ وذلك كإثبات صفات الرب تبارك وتعالى وعدم التعرض لها بالتأويل والتحريف، وأن القرآن كلام الله على الحقيقة وأنه غير مخلوق ،وكذا القول في مسألة " الإيمان" ، و" الموقف من الصحابة"، وسبيلهما واحد أيضا في ذم أهل البدع من القبوريين ، والقائلين بالاتحاد والحلول. ولكن هناك تحفظ للإمام الذهبي على بعض المسائل في باب الصفات ، كلفظة "بذاته" ، ومسألة "إثبات الحد لله تعالى". =

= هذا ، وقد أخذ على الإمام الذهبي عدة ملاحظات وأخطاء وقعت منه في باب توحيد الألوهية ومسائله ، كأن يذكر أن للمترجم له قبة أو مشهدا يُزار ولا يعقب على الكلام ببيان حكم هذه المسألة وبدعيتها، ومن ذلك تصريحه بأن دعاء الله تعالى يستجاب عند قبور الأنبياء والصالحين، ومع هذا فالرجل يذم شركيات القبوريين ويحذر منها.

انظر تفصيل ذلك في كتاب : (عقيدة الإمام الذهبي) لسليمان الخراشي.

برياسة المشيخة"، فالذي لا نغضي الطرف عنه ، بل نتوقف معه هو: أربعة أمور تظهر من هذه الترجمة:

١- أن رأي الذهبي في سبب وقوع العداوة بين ابن تيمية وبعض علماء عصره مرده إلى ما كان في ابن تيمية من عيوبٍ هي: حدته في البحث وشظفه على الخصم حتى كان ذلك يزرع له العداوة في النفوس ، وأنه لو لازم الرفق والمجاملة لصار كلمة إجماع عند علماء عصره.

وحتى لا يستدرك أحد على الذهبي بأن مثل هذا لا يؤدي إلى عداوة يعقبها تفسيق وتكفير ، أخبرَ أن كلامه في أهل الإنصاف من هؤلاء العلماء ، أما الذين وصل بهم الأمر إلى تجهيله وتكفيره فهؤلاء ما فهموا، كما أنهم ليسوا من أهل الاطلاع التام، ومن ثم بادروا إلى التفسيق والتكفير بحقٍّ وباطلٍ. وعلى كل حالٍ: فكلامهم في ابن تيمية غير مقبول؛ لأن طريق السلامة السكوت عما كان بين الأقران.

هذا حاصل كلام الذهبي فأين هذا الكلام – وهو بعد موت ابن تيمية- من قول صاحب الزغل: إن تكفير أولئك العلماء لابن تيمية وازدراؤهم به إنما كان عقوبةً إلهيةً نتيجة عجبه وكبره وفرط غرامه برياسة المشيخة؟!!

٢- أخبرنا الذهبي أنه يأخذ على ابن تيمية تفرده ببعض المسائل في الفروع والأصول ، وأخبرنا أنه يلتمس له العذر في ذلك؛ لأنه- ولخبرة الذهبي به- لم يكن يتفرد بهذه المسائل لهوًى أو من جهل، بل حاله على خلاف ذلك ، ومن هنا يوصي الذهبي مخالفي الرجل بالتماس العذر له كما التمسوه لكبار أئمتهم في مفرداتهم، ولم ينطق الذهبي ببنت شفة أن ابن تيمية كان فيه عيوب من عجب وكبر وازدراء بالأكابر وفرط غرام برياسة المشيخة، وهذه لو كانت موجودةً في شخصٍ ما، ويعتقدها رجل مؤرخ يترجم له عنده أدنى درجات الأمانة العلمية في تقييم الشخصيات التي يترجم لها، لما وسعه أنه يسكت عنها.

٣- أخبرنا الذهبي أنه وقع له إيذاءٌ بسبب رأيه وموقفه من ابن تيمية من أعدائه وخواصه على حدٍّ سواء، وهذا أمر غريب، إذ المعروف أن الحاكم على شخص ما إما أن يكون من مادحيه فيواليه خواص ذلك الرجل ومحبوه ويبغضه أعداؤه ، أو يكون من قادحيه فيحبه أعداؤه ويشنؤه خواصه وأتباعه، ولكن الذهبي أشار إلى السبب الذي كان وراء إيذائه من الطرفين، وهو : أن

أعداء ابن تيمية يرون الذهبي يغالي في ابن تيمية بما يطلقه عليه من ألقاب ويذكره عنه من محاسن وفضائل ، وأن خواص ابن تيمية ومريديه يرون الذهبي مقصرًا في حق إمامهم وشيخهم، فهو عندهم يستحق أضعاف أضعاف ما يقوله فيه الذهبي.

فلو كان الذهبي قد كتب يومًا أن ابن تيمية فيه عجب وكبر ....إلخ ، وعُرف عند الناس أن هذا هو رأي الذهبي المؤرخ الكبير في ابن تيمية الذي شغل الناس في زمانه وبعد زمانه ، هل كان محبو ابن تيمية والمغالون فيه يصبح معولهم في تنكرهم للذهبي على مجرد تقصيره في مدحه والثناء عليه، أم يكون مستندهم في ذلك: أن الذهبي رمى ابن تيمية بتهمٍ عظيمةٍ خطيرةٍ في كتاب "زغل العلم والطلب" ؟؟ وهل كان أعداء ابن تيمية يأخذون على الذهبي شيئا في مدحه لابن تيمية وقد ذكر حقيقة أمر هذا الرجل وسبب الفتن التي وقعت له مع علماء عصره، وأن مرد ذلك إلى عيوبٍ أخلاقيةٍ وأمراضٍ قلبيةٍ تُذهب كل فضيلةٍ من علمٍ وذكاءٍ وزهدٍ وغيره؟؟

٣- بتلاوة هذه الترجمة نعرف أن الذهبي قد كتب ما كتب في ابن تيمية عن قرب من الرجل ودراية به ومعرفة تامة بأحواله، حيث قال:" مع خبرتي التامة به" ،وأن ذلك كان عن تجردٍ تامٍّ للحق، لا لرجاء أي نوع من المنفعة الدنيوية، ولم يذكر فيما كتب عُجبًا وكبرًا ....إلخ، على حين نرى أن صاحب الزغل قد كتب ما كتب أيضًا عن خبرة حصلت بعد تعب سنين في الوزن والتفتيش؛ لتقييم هذا الرجل الذي لم يزل يختلف فيه الناس إلى يومنا، لكن صاحب الزغل خرج برأيٍ مباينٍ كل المباينة لما كتب الذهبي المؤرخ الذي نعرفه. فهل لهذا معنًى سوى أنهما رجلان متغايران متابينان كتغاير رأييهما وموقفيهما من شيخ الإسلام ؟ إي لعمر الحق : إنهما لكذلك.

ومن حقنا بعد كل هذا أن نرفع عقيرتنا بقولنا لمن يثبتون صحة هذا النقد للذهبي : "ما لكم كيف تحكمون" ؟!

اعتراض وجوابه

لكن يبقى أن يقال: هناك احتمال ثالث لم يذكر ، وهو أن كون هذه الرسالة كتبت في حياة ابن تيمية ليس مقطوعًا به ، وكون صاحب الرسالة يقول:" **نحمد الله أن في الوقت أناسًا يفهمون...**" يعد ظاهرًا وليس بنص في ذلك.

فلِم لا يقال : هذه الرسالة كتبت بعد موت ابن تيمية ، وبعد أن صار عبد الله بن خليل إمامًا مقتدًى به مقدمًا على سائر أهل زمانه، ولتكن هذه التهم التي بالزغل آخر ما كتبه الذهبي في حق ابن تيمية، وبعد كل التراجم التي ترجم له فيها ،فلا يبقى إشكال؟

والجواب: أن هذا مضحك؛ لأنه لم يسمع الناس – عربًا وعجمًا- برجل قد أحب رجلًا وأثنى عليه في حياته وبعد مماته لسنين طويلة بحسن الطوية والقيام لله تعالى ، ثم اكتشف فجأة أنه خدع فيه وأن قصد الرجل كان حب الظهور ورئاسة المشيخة، مع أنه يقول هنا: "تعبت في فتشه ووزنه"[1].

فنسبة هذا الكلام للذهبي غير متصورة ولا معقولة على كل الفروض والاحتمالات.

---

(١) وهذا مع كونه مضحكًا فقد أبطله الذهبي بقوله في "ذيل تاريخ الإسلام" بعد ثنائه عليه " مع خبرتي التامة به "، إلا أن لأهل البدع ممن يثبتون ما جاء في الزغل ويفرحون به أن يستدركوا علينا قائلين: أصاب ابنَ تيمية العجبُ والكبرُ وحبُ الرياسة في قبره وبعد أن رمّ ، وبعد أن كان الذهبي قد كتب كل ما قاله فيه من مدح وإطراء!!! وساعتها يجب علينا أن نسلم لهم!!!

اعتراض آخر والجواب عنه

فإذا قيل: لماذا هذه الفروض والاحتمالات من أصلها، ولماذا نهول من الموضوع ونقول بالنسخ؟

لماذا لا نقول بأننا أمام حالة وقع فيها تعارض بين الجرح والتعديل من ناقد واحد في حق أحد من يترجم لهم؛ أثنى الذهبي على ابن تيمية في مواضع وانتقده في هذا الموضع، وهذا تاج الدين السبكي قد أثنى على شيخه الذهبي عند ترجمته له ، ورماه بعدم الإنصاف والتحامل على الأشاعرة والجهل بالمباحث الكلامية في غير موضع من طبقاته؟

وغاية ما في هذا أن يُستشكل لا أن يُمنع، كما هو معروف.

والجواب: أن الأمر هنا ليس كذلك، فقد يثني الناقد على الرجل في أمر وينتقده في آخر، وأحيانًا يجمع الناقد بين القدح والثناء في موضع، وقد يذكر أحدهما في موضع ، والآخر في موضع غيره. لكن هذا إذا متعلق النقد والقدح غير متعلق الثناء والحمد، كأن يثني الناقد على المترجم له بالعلم ويقدح في ورعه، أو العكس ، أو يمدحه بالزهد وينتقده في سوء الخلق إلى آخر هذه الأشياء.

فمثلًا، تاج الدين السبكي أثنى على شيخه الذهبي في علمه واطلاعه وحفظه ، وانتقده في تحامله على الأشعرية وتعصبه لابن تيمية وللحنابلة (في زعمه)، فلا وجه للاستغراب أصلًا، وهذا الذهبي نفسه يمدح ابن تيمية في علمه ودينه وزهده ، وينتقده في حدته في البحث وشظفه على الخصوم وعدم التؤدة، وانفراده بمسائل ؛ فإذا اتسع المقام ذكر كل هذه الأمور بالتفصيل ، وإذا ضاق اختصرها ، أو اكتفى بالمدح، وهكذا.

لكن هذا الذي نحن بصدده الآن هو نقد مظلم لم يوجد في أي ترجمة ترجمها الذهبي لابن تيمية على كثرة ذلك ، وفي الوقت نفسه هو نقد يتعارض مع ثنائه السابق واللاحق ، وفوق كل هذا ليس المقام مقامه ولا الموطن موطنه؛ إذ هذه وريقات في العيوب الموجودة في كل طائفة دون تعيين أفراد منها ، بل المقصود التنبيه على الخطأ للتحذير منه لا الكلام في الأشخاص والناس، ثم هو موجه إلى ابن تيمية دون سائر العلماء لا مرة عابرة بل يتكرر في

موطنين ، وبعبارات لم توجد له في سائر المواطن التي ترجم فيها الذهبي لابن تيمية، مع اشتمال بعض تراجم الذهبي لابن تيمية على النقد وربما النقد اللاذع أحيانًا مثل:

قوله:

" وقد انفرد بفتاوي نيل من عرضه لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه، فما رأيت مثله وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويترك، فكان ماذا؟ "[1].

وقوله: " وانفرد بمسائل فنيل من عرضه لأجلها، وهو بشر له ذنوب وخطأ "[2].

وقوله:" ...فإنه مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين، بشر من البشر تعتريه حدة في البحث ، وغضب وشظف للخصم؛ تزرع له عداوة في النفوس ، ونفورًا عنه. وإلا والله لو لاطف الخصوم ورفق بهم لكان كلمة إجماع ، فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، معترفون بشفوفه وذكائه، مقرون بندور خطئه" إلى أن قال:" ...لكن ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالًا ، منصفهم فيها مأجور ومقتصدهم فيها معذور، ظالمهم فيها مأزور وغاليهم مغرور ، وإلى الله ترجع الأمور "[3].

وقال مرة، وقد ذكر فتنة الحموية: " والذين سعوا في الشيخ ما أبقوا ممكنًا من القذف والسب ورميه بالتجسيم . وكان **قد لحقهم حسد للشيخ** وتألموا منه بسبب ما هو المعهود من تغليظه وفظاظته وفجاجة عبارته ، وتوبيخه الأليم المبكي المنكي المثير النفوس ، ولو سلم من ذلك لكان أنفع للمخالفين ، لاسيما عبارته في هذه الفتيا الحموية. **وكان غضبه فيها لله ولرسوله باجتهاده** ، فانتفع بها أناس وانفصم بها آخرون ولم يحملوها "[4].

---

(١) " تذكرة الحفاظ" (٤ / ١٤٩٦).

(٢) " معجم المحدثين"(١/٢٥).

(١) "ذيل تاريخ الإسلام" ، وهو مخطوط ، ونقلت منه بواسطة الجامع لسيرة شيخ الإسلام (خلال سبعة قرون) (ص ٢٠٩).

(٢) " تاريخ الإسلام للذهبي"(١٣ / ٤٠١) .وهذا أقوى ما وقفت عليه من نقد للذهبي في حق شيخ الإسلام ، ولم يستعمل هذا الأسلوب في أي من مواطن ترجمته له ، بل يستعمل عبارات أكثر تأدبًا مع شيخه.

ومع فجاجة عبارة الذهبي هنا، لكنك تجد فيها نفَس الذهبي المعروف في سائر تراجمه لشيخ الإسلام: فقد ذكره بلفظ الشيخ، وأن ما وقع له مبدؤه الحسد له ، وذكر شدته وحدته، وأنه كان مجتهدًا فيما ذهب إليه، وأن غضبه كان لله ورسوله" وكل هذا مكرر في تراجمه له مع اختلاف الأسلوب بطي ونشر .

مما يدلك على أن ما جاء في الزغل لم يكتبه بنان الذهبي ولا خطه قلمه، فتدبر!

ولا يوجد في أي من هذه التراجم هذه البلية العظيمة التي تذهب- عند تأملها- بكل فضيلة لابن تيمية بل ولأي عالم ، فالإفراط في حب الرياسة والمشيخة يدل على فساد النية وعدم إخلاص العمل لله تعالى ، وهذا من محبطات الأعمال بلا شك، والعجب والكبر من أقبح أمراض القلوب التي لا يكاد يفلح صاحبهما ، ولا توجد هذه الصفات إلا في علماء السوء وحدهم، وحاشاها وحاشا العلماء العاملين.

فما معنى هذا؟ وهل نحن أمام مجرد تعارض بين جرح وتعديل من إمام واحد غايته أن يُستشكل لا أن يمنع؟!! [1] .

---

[1] - * **تنبيه:**

وجدتُ بعضَ الإخوة قد سلك سبيلًا آخر في تبرئة الذهبي مما جاء في "زغل العلم" مدعيًا أن كلام الذهبي ليس فيه شيء من الذم في حق ابن تيمية ، وأن العبارة المطبوعة فيها تحريف لانحراف طابعها عن شيخ الإسلام ، وأن النقد الموجود مقصود به أعداء الشيخ؛ أي أن معنى النقد :ما أخره بين أهل مصر والشام، ومقتته نفوسهم، وازدروا به وكذبوه وكفروه، ما سبب ذلك إلا الكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار"، فتقدير الضمير في العجب والكبر وفرط الغرام برياسة المشيخة يعود إلى أعداء ابن تيمية لا إليه هو".

ولكن هذا بعيد جدًّا، ولو كان كذلك لقال:" ما ازدروا به وكفروه إلا للحسد، ونحوه"، فهو الذي يحمل على مثل هذه الأمور، ثم إن آخر الكلام يأباه وهو قوله:" فانظر كيف وبال الدعاوى وحب الظهور" فهي كالسبب للمقت والازدراء والتكفير ومنسجم مع وصفه بالعجب والكبر ، بخلاف ما إذا كان المقصود أعداء الشيخ ،ويدلك عليه أيضا قوله:"... وما جرى عليهم- يعني ابن تيمية وأصحابه – إلا بعض ما يستحقون" فهذا سياق واحد المقصود منه: الحط على ابن تيمية وأصحابه.

وأيضًا؛ لو كان غرضه الثناء على ابن تيمية هل يقول:" رجل يقال له: ابن تيمية "كأنه لا يعرفه، وهو تلميذه؟ وسنبسط ذلك لاحقًا.

* **تنبيه آخر:**

في كتاب "المقالات الدمشقية في الدفاع عن ابن تيمية وكشف الضلالات الحبشية" (ص ٤٦) أورد النقد الذي بالزغل هكذا:

" فو الله ما رمقت عيني أوسع علماً ولا أقوي ذكاءً من رجلٍ يقال له: ابن تيميه مع الزهد في المأكل والملبس والنساء مع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن ... مقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا للكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة ومحبة الظهور نسأل الله تعالي المسامحة ، فقد قام عليه أناس ليسوا بأروع منه ولا بأعلم منه ولا أزهد منه ، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم . وما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل بذنوبه ، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون"

ونتابع التدليل على عدم صحة نسبة هذا النقد للذهبي من وجوهٍ أخرى سوى ما سبق ، فنقول:

وهذا تصرف في النص بحذف بعضه ليتغير معناه ، ومثله لا يجمل من أهل السنة. وقد عرفنا أن النص مزور من الأصل ، فما ثمة داعٍ لمثل هذا ، بل هذا الفعل مما يشمت أهل البدع بأهل السنة فينسبونهم إلى التدليس، وقد قالوه حيال هذا الفعل مع هذا النص.

* **تنبيه ثالث:**

جاء في كتاب" شيخ الإسلام ابن تيمية " جمع وترتيب أحمد فريد- عند الكلام على " ثناء العلماء عليه" ص ٦ :

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي . رحمه الله . :

فو الله ما رمقت عيني أوسع علما ، ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له ابن تيمية ، مع الزهد في المأكل والملبس والنساء ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن ". انتهي.

وقال أيضا: " ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر ، أحد الأعلام .. كان من بحور العلم ،ومن الأذكياء المعدودين والزهاد والأفراد....". انتهى ما جاء في الكتاب المذكور.

أقول: لا أدري كيف وقع هذا الخلط، وما منشؤه؟ فهذه الفقرة " فو الله ما رمقت عيني ... " إلخ ، منتزعة من النقد المظلم الموجود في زغل العلم المنسوب للإمام الذهبي، فما للسيوطي ولها ؟! بل إن بين وفاة ابن تيمية وميلاد السيوطي ما يربو على مائة عام، فمتى رمقه بعينه؟!!

وفوق هذا كله : لا وجود لها في كتاب "طبقات الحفاظ" للسيوطي، فمن أين جِيء بها معزوةً للسيوطي، بل مقدمةً على ترجمة السيوطي لابن تيمية؟!

وجه ثان

كما أسلفنا قد ترجم الذهبي لابن تيمية في حياته وبعد مماته، فرأيناه يُتوّجُه بما سبق أن شنف أسماعنا من تلك الألقاب الفخمة ، **كرباني الأمة ، وحامل لواء الشريعة، وشيخ الإسلام**(١) وغيرها من النعوت التي لا تطلق إلا على الربانيين والعلماء العاملين ، فكيف يقع منه هذا الإطراء البليغ مع قوله في هذه الرسالة: إنه رجل مفرط في حب رياسة المشيخة ممتلئ بالعجب والكبر؟! أي خيانةٍ لأمانة النقد أكبر من هذا حيث يذكر الرجل بأوصاف قل أن أطلقها على غيره من معاصريه، ثم لا يذكر هذا الداء العضال الذي لا يسكت عن مثله في مقام الترجمة المستوفية إلا مدلس يحابي ويجامل على حساب الأمانة التاريخية؟!

بل إننا لا نجد من المؤرخين المعاصرين للذهبي من أثنى على ابن تيمية كما أثنى هو عليه، وإذا أراد رجل مغرم بابن تيمية أن ينقل كلامًا فيه إطناب في مدحه وذكر شمائله وفضائله لم يجد ضالته عند أحدٍ كما يجدها عند الذهبي!!

فإذا زعم أهل البدع من خصوم شيخ الإسلام أن ذلكم الإطراء متقدم وقبل أن يكتشف الذهبي حقيقة هذا الرجل- مع أنَّا بينَّا عدم معقولية وقوعه- فكيف نفعل مع التراجم التي سطرها بعد موته وفيها هذه الألقاب الضخمة والإطراءات الفخمة؟؟

ويقوي هذا الوجه ما هو المعروف من سيرة ابن تيمية واشتمالها على المحنة بعد المحنة والفتنة بعد الفتنة، وأنه قد أدخل نفسه وأصحابه في بلاءٍ عظيمٍ بسبب آرائه ومواقفه ، فإذا كان كل هذا سببه حب الظهور والعجب والكبر لا الجهاد ابتغاء مرضاة الله تعالى ونصرة لدينه، فهل يجمل بمؤرخ في حجم الذهبي السكوت عن هذه الأمور في كل تراجم ابن تيمية

(١) قال ابن ناصر في "الرد الوافر)(ص ٣٥) " وترجمة أبي عبد الله الذهبي للشيخ تقي الدين بشيخ الإسلام أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر". فأي رجل مدلس الذهبي حيث يدخل في عداد شيوخ الإسلام رجلًا مليئًا بالعجب والكبر وفرط الغرام في رياسة المشيخة!!!!

التي بلغت تسع تراجم في كتب الذهبي ، وترجمة مفردة في سيرته، إضافةً إلى ما ذكره عنه المؤرخون مما ليس بين أيدينا الآن[1]؟

وإذا كانت ألقاب: "شيخ الإسلام " و " رباني الأمة "و"حامل لواء الشريعة" و" وهو أعظم من أن يصفه كلمي أو ينبه على شأوه قلمي "من السهولة بمكان عند مؤرخ كبير كالذهبي بحيث يطلقها على رجل معجب متكبر يسعى للمنصب والجاه، فهل سيكون في قاموسنا موضع لشيء اسمه علماء السوء؟؟!!

لا جرم قد أعاذ اللهُ الإمامَ الذهبي من كل ذلك.

(٢)- قال مرعي الكرخي في كتابه "الشهادة الزكية"(ص ٣٩): "وقد ترجم الذهبي هذا ابن تيمية في عدة مواضع وأثنى عليه ثناء حسنا" وذكر بعضها ثم قال (ص ٤٢) "وتراجم الذهبي لابن تيمية أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر، رحمه الله تعالى".

وجه ثالث

أن تراجم الذهبي لابن تيمية بالمدح والثناء والنقد الموضوعي كثيرةٌ وفي مواضع عدة وأزمنة مختلفة، منها ما كتب في حياة الشيخ[١] ، ومنها ما كتب بعد مماته[٢]، ونَفَسُ الذهبي فيها واحد لم يتغير، وهو ترك الإسراف في المدح وعدم هضم حق ابن تيمية فيما يستحقه من الثناء، وهو ما أوقع الذهبي في حرج مع المغالين في الشيخ ومع أعدائه على حد سواء.

وعبّر هو عن ذلك بقوله بعد مدحه له :" ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومن نابذه وخالفه ، فقد ينسبني إلى التغالي فيه، وليس الأمر كذلك"

وقال في نفس الترجمة: " مع أني قد أُوذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده فحسبي الله!"

وفيها أيضا" وقد تعبت بين الفريقين :فأنا عند محبه مقصر، وعند عدوه مسرف مكثر، كلا والله"![٣] .

فلم يوجد في أي منها هذه البلايا الموجودة في " زغل العلم " ، حتى في التراجم المطولة ، ولا في الترجمة المفردة أيضًا، ولم يذكر فيها هذه العيوب في موطنها حيث يتوسع في الكلام عن الرجل وما له وما عليه.

وفي ذات الوقت نجد الذهبي يكرر في تراجمه في مواطن كثيرة ما قاله في موطن ما، وهذه طبيعة كتب التراجم ،حتى إنك لتجد بعض المؤرخين ينقل من كتابه إلى كتابه الآخر بلا زيادة ولا نقصان، بل وأكثر من ذلك أن بعض المؤرخين ينقل كلام غيره بلا زيادة ولا نقصان وبلا عزو أيضًا. والشاهد في هذا: أن كلام المؤرخ في الرجل ورأيه يتكرر معه إذا ترجمه في أكثر من موطن، وهذا ما تجده في صنيع الذهبي مع ابن تيمية في تراجمه من مدح وقدح ؛ حيث يكرر مع تغيير في العبارة أو بزيادة ونقصان، ومع هذا فلا نجد أثرًا لتلك التهم في أي من مواطن الترجمة التسعة ولا في الترجمة المفردة!

فهذا علام يدل؟!

---

(١) كما في "الدرة اليتيمية".

(٢) وهو أكثر التراجم كما يظهر من سياقها.

(٣) " ذيل تاريخ الإسلام" ، وهو مخطوط ، ونقلت منه بواسطة الجامع لسيرة شيخ الإسلام (خلال سبعة قرون) (ص ٢٠٩).

وجه رابع

مقارنة بعض كلمات هذا الانتقاد بكلمات تراجم الذهبي لابن تيمية:

– في الفقرة الأولى من النقد المنسوب للذهبي " فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه، إلا الكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار .فانظر كيف وبال الدعاوي ومحبة الظهور". انتهى

فصاحب هذا الكلام يرى أن قيام شيخ الإسلام فيما قام به من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع حتى أصابه من المحن ما أصابه هو: محبة الظهور، وفرط الغرام بالرياسة.

فلننظر في كلام الذهبي في تراجمه لابن تيمية ورأيه في جهاده:

قال في معجم الشيوخ:" ...وأُوذي في **ذات اللّه** من المخالفين، وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وَكَبَتَ أعداءه، وهدى به رجالًا من أهل الملل والنحل "[1].

وقال بعد أن ذكر محنته بسبب الفتوى الحموية:" **وكان غضبه فيها لله ولرسوله** باجتهاده ، فانتفع بها أناس وانفصم بها آخرون ولم يحملوها[2] .

وقال:" **ولا هو بمتلاعب بالدين**؛ فلو كان كذلك؛ لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه، وموافقتهم، ومنافقتهم.

ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن، أو بالحديث، أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث؛ أسوة من تقدمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها؛ فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب؛ فله أجران.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٣٣٩).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (١٣ / ٤٠١).

وقال: " مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية ، قد أبديت آنفًا أن خطأه فيها مغفور ، بل قد يثيبه الله تعالى فيها على **حسن قصده** وبذل وسعه، والله الموعد"[1] .

وقال: " **كان رباني الأمة وفريد الزمان وحامل لواء الشريعة** وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأسًا في العلم يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبالغةً ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد ولا لحظتها من فقيه "[2].

وقال: "...حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قيامًا لا مزيد عليه، وبدعوه وناظروه وكاتبوه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال، **مع ما اشتهر منه من الورع** وكمال الفكر وسعة الإدراك، **والخوف من الله العظيم، والتعظيم لحرمات الله**؛ فجرى بينه وبينهم حملات حربية ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله تعالى، **فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل**، ثابت الجأش، له **أوراد وأذكار يدبجها بكيفية وجمعية**"[3].

فإذا تأملت هذه العبارات " غضبه فيها لله ورسوله"، "حسن قصده وبذل وسعه" ، "في ذات الله"،" مع ما اشتهر منه من الورع" ،" والخوف من الله العظيم والتعظيم لحرمات الله"،" **ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي" ،" ولا هو بمتلاعب بالدين**"

فهل يبقى لديك ريبٌ أن قائل هذا الكلام ليس هو قائل: " وما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل بذنوبه، وما دفعه الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون فلا تكن في ريب من ذلك"؟

---

(٣) " ذيل تاريخ الإسلام" ، بواسطة "الجامع لسيرة شيخ الإسلام" (خلال سبعة قرون)(ص ٢٠٩)٠

(٤) "العقود الدرية "(ص٣٩) ٠

(١) "الرد الوافر"(ص ٣٤) ٠

– وقوله في النقد :" وفرط الغرام في رئاسة المشيخة"، لا يُدرى ما هذا!!، فابن تيمية لم يكن يومًا من طلاب الوظائف– وهذا من أسباب ثباته وقوته في مواقفه– ولو كان كذلك فلمَ لمْ يصل إليها ؟ وهل كان في الحنابلة، بل في غيرهم، من يساويه أو يقاربه في العلم؟

فابن تيمية كما قال الذهبي: " ناظر واستدل وهو دون البلوغ، وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه"[(١)].

صدق الأول حيث قال:

لي حيلة فيمن يَنُمُّ وليس لي في الكذاب حيلة

من كان يخلق قوله حيلتي فيه قليـــــــــــــلة

وهل هذه السبيل التي سلكها سبيل رجل يريد المناصب أو تخطر بباله المناصب؛ فمعروف عند كل العقلاء فضلًا عن حذاق الأذكياء كشيخ الإسلام ، أنْ لا أقل لطالب ذلك من ملاينة وموافقة مَن بأيدهم هذه المناصب، وأنّ الدخول في معاداتهم ومخالفتهم مما يحول بين طالب هذه الأمور وبين إدراكها.

وسبحان الله ! قد نص الذهبي على هذا في حق ابن تيمية، قائلًا :"... ولا هو بمتلاعبٍ بالدين ؛ فلو كان كذلك ، لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه ، وموافقتهم ، ومنافقتهم"[(٢)].

فلا ريب أن وصف ابن تيمية بفرط الغرام في رياسة المشيخة: كذب وإفك مفترى قاله شانئ لابن تيمية، وأبعد الناس من قوله هو الذهبي رحمه الله تعالى.

- وفي ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٧٩٥) في ترجمة ابن تيمية:

"وقد عُرض عليه **قضاء القضاة قبل التسعين ، ومشيخة الشيوخ** فلم يقبل شيئًا من ذلك. قرأت ذلك بخطه"[(٣)] .

– وقوله في الفقرة الأولى أيضًا:" والازدراء بالكبار". هذا رأي كثير من أعداء ابن تيمية من الأشعرية والصوفية ، ومقصودهم بالكبار أرباب المقالات الكلامية والطرق الصوفية الذين لهم

---

(٢) هكذا قال الذهبي، انظر:" العقود الدرية"(ص٣٨).

(١) " ذيل تاريخ الإسلام" بواسطة " الجامع لسيرة شيخ الإسلام" (ص ٢٠٩).

(٢) "ذيل طبقات الحنابلة" (١ / ٣٣٩).

من الآراء والأحوال والأقوال الكثير مما يخالف دين الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم عندهم كالمعصومين ومن انتقدهم فقد ركب الذنب المبين. ولكن رأيهم هذا بعكس رأي الذهبي في موقف ابن تيمية من الرجال.

قال ابن رجب:" قال الذهبي: وغالب حطه على الفضلاء والمتزهدة فبحق، وفي بعضه هو مجتهد، ومذهبه توسعة العذر للخلق، ولا يكفر أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه"[1].

- وفي الفقرة الثانية من النقد ذكر أن ابن تيمية: "كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منورًا مضيئًا على محياه سيما السلف، ثم صار مظلمًا مكسوفًا عليه، قتمة عند خلائق من الناس ودجالًا أفاكًا كافرًا عند أعدائه ومبتدعًا فاضلًا محققًا بارعًا عند طوائف من عقلاء الفضلاء، **وحامل راية الإسلام، وحامي حوزة الدين، ومحيي السنة عند عوام أصحابه** "، ومقتضى هذا الكلام أن كون ابن تيمية حامل راية الإسلام ومحيي السنة إنما هو رأي لعوام أصحابه فحسب دون خواصهم، ودون سائر الناس الذين انقسموا في أمره مذاهب شتى، وأنهم- أي عوام أصحابه- غلوا في وصفه، وبالغوا في قدره، ولم يكتفوا فيه برأي عقلاء الفضلاء، وكل هذا ذم لهم بلا شك.

فلنُلقِ نظرةً على تراجم الذهبي لابن تيمية؛ لنعرف من حكمه عليه إلى أي الطوائف ينتمي في حكمه على ابن تيمية.

قال في "تذكرة الحفاظ":" ابن تيمية الشيخ **الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع، شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر** " .

وفي "معجم المحدثين"[2] :"فريد العصر بحر العلوم".

وفي "معجم الشيوخ"[3]:"...وأُوذي في **ذات اللّه** من المخالفين، **وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره**، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وَكَبَتَ أعداءه، وهدى به رجالًا من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالبًا، وعلى طاعته، **أحيا به الشام، بل والإسلام، بعد أن كاد ينثلم**"

---

(١) " ذيل طبقات الحنابلة" (١ / ٣٤١).

(٢) (١/٢٥).

(٣) "كذا نقله عنه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة" (٢/٣٩٠)، وهو غير المعجم المطبوع، فإن للذهبي ثلاثة معاجم.

ونقل عنه ابن رجب في" ذيل طبقات الحنابلة" قوله فيه:" **ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية**"[1].

وفي "الرد الوافر" لابن ناصر (٨٤٢): " وكتب الحافظ الذهبي أيضًا طبقة سماع كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام على مؤلفه الشيخ تقي الدين، والطبقة آخر الكتاب، فقال سمع هذا الكتاب على مؤلفه شيخنا الإمام العا لم العلامة الأوحد: **شيخ الاسلام، مفتي الفرق، قدوة الأمة، أعجوبة الزمان، بحر العلوم، حبر القرآن، تقي الدين، سيد العباد** أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني رضي الله تعالى عنه وذكر بقية الطبقة" [2] انتهى.

وقال الذهبي أيضًا: "وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال: **كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث** ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي" [3].

وفي "العقود الدرية" (ص ٣٩) ذكر عنه قوله فيه:

"فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم **الفلاسفة فَلَّهم وتَيَّسهم وهتك أستارهم وكشف عوارهم**"

وفي نفس الموضع "**وهو أعظم من أن يصفه كلمي أو ينبه على شأوه قلمي**".

فلننظر في هذه الألقاب الكبيرة:

"شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر" ،" فريد العصر بحر العلوم" " أحيا به الشام، بل والإسلام، بعد أن كاد ينثلم"، " ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية"، "شيخ الاسلام مفتي الفرق قدوة الأمة أعجوبة الزمان بحر العلوم حبر القرآن تقي الدين سيد

---

(٤) " ذيل طبقات الحنابلة" (١ / ٣٤١).

(٢) "الرد الوافر" (ص٣٢).

(٦) " العقود الدرية" (ص٤٠)

العباد" "كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث" " وهو أعظم من أن يصفه كلمي أو ينبه على شأوه قلمي"

فهل عند هؤلاء الأصحاب الذين عابهم صاحب الزغل أكثر من ذلك ؟!

أم ترى الرجل يعيب نفسه وهو لا يدري، إن كان الذهبي هو صاحب النقد حقًّا؟

- وقول صاحب النقد:" ... **وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدين ومحيي السنة عند عوام أصحابه**" على الخصوص مما يسترعي الانتباه، فقد قال الذهبي مادحًا ابن تيمية كما نقله عنه صاحب "العقود الدرية":

"**رباني الأمة وفريد الزمان وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين**[1].

فأنت ترى الذهبي يطلق على ابن تيمية:" **حامل لواء الشريعة**"، وصاحب النقد الذي بالزغل جعل ذلك رأي عوام أصحابه، فهل قائل الكلامين واحد ؟ أم هما رجلان :أحدهما الذهبي محب ابن تيمية، والثاني عدو متحرق مبغض لابن تيمية؟!!

- المعهود من الذهبي عند ذكر ابن تيمية غالبًا أن يصدره بقوله: "شيخنا "،أو الشيخ تقي الدين ، وها هنا لم يقل ابن تيمية فحسب، بل قال:" رجل يقال له: ابن تيمية" كأنه ليس من تلاميذه،[2]

---

(٢) "العقود الدرية"(ص٣٨).

(١) قال في "معجم الشيوخ"(المطبوع)(٥٦/١) في ترجمته لابن تيمية: "سمعت جملة من مصنفاته، وجزء ابن عرفة، وغير ذلك" انتهى.

وقد اختصر الذهبي كتاب شيخه "منهاج السنة النبوية".

واقرأ "تاريخ الإسلام" للذهبي، وانظر تتلمذه لابن تيمية وتأثره به، ومن أمثلته:

قال في "ترجمة ابن كلاب" (٤ / ٣٥٠):" قال شيخنا ابن تيمية: كان له فضل وعلم ودين". وفي "ترجمة محمد ابن جرير" (٥ / ٣٥٠):" وذهب شيخنا ابن تيمية، وهو من أهل الاجتهاد لاجتماع الشرائط فيه أن الحالف على شيء بالطلاق لم تطلق منه امرأته بهذه اليمين، سواء حنث أو برّ...". وفي ترجمة "أبي طاهر العلوي": (٧ / ١٤٣):" سألت شيخنا ابن تيمية عن مذهب السالمية فقال: "هم قوم من أهل السنة في الجملة..."، وذكر أحوال

و لا ممن اشتهر بصحبته وملازمته[1]، ولا ممن أصابته المتاعب بسبب تتلمذه له، وكونه على مذهبه في الاعتقاد[2]، ولا طعن في مصداقيته في تراجمه لمخالفيه بسبب تأثره به[3].

المشعوذين فقال (١١ / ٢٥٥):" وقد صنف شيخنا ابن تيمية غير مسألة في أن أحوال هؤلاء وأشباههم شيطانية". وهذه مجرد أمثلة. وفي "سير أعلام النبلاء" أخواتها.

* **أما عن توقير الذهبي لابن تيمية عند ذكره، فهو مما يظهر جليًّا**، إذ الغالب عليه أن يصدر اسمه ب"شيخنا" أو "الشيخ تقي الدين"؛ هكذا فعل في ترجمة مجد الدين جد أبي البركات جد ابن تيمية، وفي ترجمة والد ابن تيمية الشيخ عبد الحليم، إذ قال في الأول :جد شيخنا ، وفي الثاني: والد شيخنا، بل الأمر أكثر من ذلك؛ فعندما يترجم لشخص ويكون ممن أخذ عنه المزي والبرزالي وابن تيمية وهذه الطبقة يخص ابن تيمية بقوله: "وشيخنا" قال في" ترجمة علي بن بلبان" (١٣ / ١٤١): "سمع منه : شيخنا ابن تيمية ، والمزي ، والبرزالي ، وأبو القاسم بن حبيب ، وشهاب الدين ابن المجد الشافعي ، وأبو عبد الله بن الصوفي ، وخلق كثير ".وفي ترجمة عبد الرحمن بن يوسف بن محمد بن نصر ابن أبي القاسم: (١٣ / ٢٦٣):" روى عنه : ابن الخباز ، وابن العطار ، وشيخنا ابن تيمية ، والمزي ، والبرزالي ، وخلق سواهم" وفي ترجمة إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل (١٣ / ٤٧٨): قلت : سمع منه البرزالي ، وابن سيد الناس ، وقطب الدين الحلبي ، والمزي ، وابنه ، والشهاب ابن النابلسي ، وابن المهندس ، وشيخنا ابن تيمية ، وإخوته".

فقارن هذه الأمثلة المذكورة من تأدب الذهبي مع ابن تيمية وإجلاله له دون غيره من شيوخه ومفيديه تعلم يقينًا أن قائل :"رجل يقال له: ابن تيمية " غير الذهبي تلميذ ابن تيمية.

(٢) قال تاج الدين السبكي: " واعلم أن هذه الرفقة؛ أعني: المزي والذهبي والبرزالي وكثيرا من أتباعهم أضر بهم أبو العباس ابن تيمية إضرارًا بينًا، وحملهم على عظائم الأمور أمرًا ليس هينًا وجرهم إلى ما كان التباعد عنه أولى بهم، وأوقفهم في دكادك من نار، المرجو من الله أن يتجاوزها لهم ولأصحابهم" انتهى "طبقات الشافعية الكبرى" (١٠/٤٠٠)٠
وقال أيضًا وقد أورد المناظرة المشهورة بين الجبائي وأبي الحسن الأشعري وقال: " هذه مناظرة شهيرة، وقد حكاها شيخنا الذهبي، وهي دامغة لأصل من يقلده؛ لأن الذي يقلده يقول: إن الله لا يفعل شيئًا إلا بحكمة باعثة له على فعله، ومصلحة واقعة، وهو من المعتزلة في هذه المسألة، فلو يدري شيخنا هذا، لأضرب عن ذكر هذه المناظرة صفحًا". ويقصد بمن يقلده: شيخ الإسلام ابن تيمية٠
انظر: " طبقات الشافعية الكبرى " ٣ / ٣٥٦"وهامش "سير أعلام النبلاء" (١٤ / ١٨٤)٠
(٣) ذكر ابن السبكي في" طبقات الشافعية الكبرى" (١٠/٢٠٠) :أنه لما شغرت مشيخة دار الحديث الأشرفية بوفاة الحافظ المزي عين والده تقي الدين السبكي الذهبيَ لها ، فتكلم بعضهم في حق الذهبي بأنه ليس بأشعري، وأن المزي ما وليها إذ وليها إلا بعد أن كتب خطه وأشهد على نفسه بأنه أشعري العقيدة، ولم ينته الأمر إلا بتولية السبكي نفسه، ولم يتولها الذهبي لهذا السبب.
(٤) انظر: "طبقات الشافعية الكبرى" (١٠٣/٩)٠

– صاحب رسالة "زغل العلم" يرى أن سيده (عبد الله بن خليل) هو المثال العصري للعالم الرباني الذي جمع بين العلم والعمل، وأن ابن تيمية هو المثال العصري لعالم السوء المعجب المتكبر، لكن الذهبي –رحمه الله تعالى– له رأي مغاير حيث يرى أن ابن تيمية من العلماء العاملين، حيث قال فيه:

"فو الله ما مقلت عيني مثله ولا رأى هو مثل نفسه.... **لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه** "(١).

وقال: " **قدوة الأمة أعجوبة الزمان** بحر العلوم حبر القرآن تقي الدين **سيد العُبّاد**"(٢).

وقال: "**رباني الأمة وفريد الزمان** وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين"(٣).

قال ابن السبكي:" وكان شيخنا والحق أحق ما قيل، والصدق أولى ما آثره ذو السبيل، شديد الميل إلى آراء الحنابلة، كثير الإزراء بأهل السنة الذين إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة؛ فلذلك لا ينصفهم في التراجم، ولا يصفهم بخير إلا وقد رغم منه أنف الراغم".

وقال: " وأما تاريخ شيخنا الذهبي – غفر الله له – فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب المفرط لا واخذه الله، فلقد أكثر الوقيعة في أهل الدين؛ أعني: الفقراء الذين هم صفوة الخلق، واستطال بلسانه على أئمة الشافعيين والحنفيين، ومال فأفرط على الأشاعرة، ومدح فزاد في المجسمة، هذا وهو الحافظ المدره، والإمام المبجل، فما ظنك بعوام المؤرخين"

وقال أيضًا : " ...ونقلت من خط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي رحمه الله ما نصه الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي، لا أشك في دينه وورعه وتحريه فيما يقوله الناس، ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات، ومنافرة التأويل، والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافًا شديدًا عن أهل التنزيه وميلًا قويًّا إلى أهل الإثبات" "طبقات الشافعية الكبرى"(١٣/٢).

وفي "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"(٧٤/٢).

في ترجمة تنكز نائب الشام: قال ابن حجر بعد نقله لكلام الذهبي في هذا الرجل: " وتعقبه الحافظ صلاح الدين العلائي بحاشية قرأتها بخطه: لقد بالغ المصنف وتجاوز الحد في ترجمة تنكز وأين مثله" وعدد محاسنه أعني: العلائي، إلى أن قال:" ذنب تنكز أنه كان يحط كثيرًا على ابن تيمية وفي هذه الأشياء كفاية" انتهى.

قال الحافظ: " قلت قوله: إن الذهبي أعرض عن محاسن تنكز ليس بصحيح" انتهى.

والعجيب أن ابن السبكي عاب على الذهبي – في زعمه – حطه على الأشاعرة وتعصبه ضدهم وأن قوله غير معتبر، ثم وقع هو في الحط على الحنابلة بما لا مزيد عليه، بحيث حق للذهبي أن يتمثل: "رمتني بدائها وانسلت".

(١) "المعجم المختص"(ص ٢٥).

(٢) نقله ابن عبد الهادي في "العقود الدرية"(ص ٣٢).

(٣) "العقود الدرية"(ص ٣٨)

وجه خامس

موضوع الرسالة آفات العلم وعيوب الطوائف المنتسبة إليه، ولم يذكر المؤلف في الرسالة كلها شخصًا بعينه في معرض الذم إلا ابن تيمية في هذين الموضعين المشار إليهما، فما الحامل على هذا؟ وهل خلا عصر الذهبي من علماء السوء الذين يصلحون أمثلة لتحذير الطلاب من طريقتهم غير شيخه ابن تيمية، الذي أخبر الذهبي في غير موضع من كتبه عند ترجمته له:" أنه لو حلف بين الركن والمقام لقال: إنه لم تر عينه مثله ولا رأى هو مثل نفسه؟!!"[1].

أليس في هذا برهان على أن هذا النقد كتبه خصم من خصوم ابن تيمية ليشفي غيظ قلبه، وسطر ذلك في هذه الرسالة التي صنفها، أو قام بدس هذا النقد في ثنايا كلام الذهبي إن كانت هذه الرسالة للذهبي؟؟

(١) انظر أمثلة ذلك في "تذكرة الحفاظ" (٤ / ١٤٩٦)قال:" فما رأيت مثله"، وفي "المعجم المختص" (ص٢٥):" ومع هذا فو الله! ما مقلت عيني مثله ولا رأى هو مثل نفسه"، وفي "ذيل طبقات الحنابلة" (١ / ٣٣٩) نقلًا عنه :" وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت: إني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه".

وجه سادس

معروف لدى القاصي والداني أن الذهبي تيمي المذهب والمشرب ، وتأثره بشخصية ابن تيمية وبأفكاره مما اشتهر وتناقله اللاحق عن السابق ، وقد وجدنا الذهبي يعتب على من تكلم في حق ابن تيمية ، ويعيب عليه ذلك ،

قال رحمه الله في ترجمة نصر المنبجي (٧١٩) الذي كان يتغالى في ابن عربي (٦٣٨) ويعادي شيخ الإسلام ابن تيمية من أجل ذلك:

"...ولقد جلست مع الشيخ نصر بزاويته، وأعجبني سمته وعبادته، **ونقل إليه أوباش عن شيخنا ابن تيمية: أنه يحط على الكبار، فبنى على ذلك !!فهلا اتعظت في نفسك بذلك؟ ولم تحط على ابن تيمية ، فإنه والله من كبار الأئمة** "[(١)].

وعتب الذهبي على صديقه تقي الدين السبكي (٧٥٦)، الذي كان يحط على ابن تيمية فكتب إليه السبكي يعتذر عن الذي صدر منه.

جاء في ذيل طبقات الحنابلة: كتب العلامة تقي الدين السبكي إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية: " فالمملوك يتحقق قدره وزخارة بحره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده، وأنه بلغ من ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائمًا وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأَجَلّ، مع ما جمعه الله له من **الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان** بل من أزمان**"** [(٢)]. انتهى

فيا لله العجب! كيف يكون الذهبي قد رمى شيخه ابن تيمية بهذه الأوصاف القبيحة، ثم يعتب على مَن ذمه وعابه؟!

وكيف يكون مخالفُه وعدوه قد وصفه بالقيام في نصرة الحق لا لغرض سوى نصرة الحق، وأنه جرى على سنن السلف وبلغ في ذلك أبلغ المنازل حتى غدا صورةً غريبةً في زمانه بل وفي أزمان

---

(١) ذيل تاريخ الإسلام ص١٩٦، نقلا عن رسالة:" أضواء على الرسالة المنسوبة إلى الحافظ الذهبي "ص ١٢

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢ / ٣١٢)، "شذرات الذهب" (٨٣/٦)

.

؛ ويكون تلميذه وصاحبه الذي لام وعتب على مخالفه وعدوه لحطه عليه – قد وصفه بأنه قام في ذلك من أجل حب الظهور وفرط الغرام بالرياسة والمشيخة، زيادةً على تطبعه بأخبث القبائح :العجب والغرور؟!

وهلا كتب السبكي إلى الذهبي بدلًا من اعتذاره له ومدحه لابن تيمية– هلا كتب إليه: كيف تلومني على حطي عليه وذمي له ، وأنت قد وصفته بالعجب والكبر وسوء الطوية ؟ أتنهاني عن أمر وتأتيه؟!!

وجه سابع

نقل ابن رجب الحنبلي في ذيله على طبقات الحنابلة ،عند ترجمة ابن تيمية، كلامَ الذهبي في ابن تيمية وما أثني به عليه وما نقمه منه، ولم يذكر هذا الكلام مع أنه موجود في رسالة ينبغي أن تطولها يد ابن رجب؛ فهي رسالة في آفات الطوائف المنتسبة للعلم والتي منشؤها أمراض القلوب، وعناية ابن رجب بهذا الباب ظاهرةٌ مشهورة، فكيف لم يقف على هذه الرسالة وهي لإمام شهير كالذهبي؟ وإذا وقف عليها وكان فيها هذا الكلام كيف لم ينقله مع ما نقله من كلام الذهبي في ابن تيمية؟

وجه ثامن

أين كان هذا النقد من أعين المؤرخين الذين منهم أشعرية ومنهم صوفية ومنهم غير ذلك، كما أن منهم من عُرِفَ بنقل كل ما يقال في المترجم له من حق وباطل، وغاية ما عندهم إذا لم يوافقوا على بعض ما نُقِل أن يجيبوا عنه ويردوا عليه. والمطالع في كتاب "الدرر الكامنة " لابن حجر (٨٥٢) يعرف ذلك جيدًا، بل قد وقع هذا على الخصوص في ترجمة شيخ الإسلام؛ حيث نقل ابن حجر عن بعض المؤرخين كلامًا فيه مدح عظيم لشيخ الإسلام، وعن بعض آخر كلامًا فيه قدح وحط عليه، فكان كلام الذهبي يقع في زاوية المديح ولم ينقل عنه حرفًا من هذا الكلام، بل إنه وقع في القدح الذي نقله كلامٌ قاله الآقشهري(٧٣١) حاصله: أن ابن تيمية لما كان يجلس في المجلس ويحدث فيه بما لا يستطيعه غيره في مجالس ، كأن العلوم بين عينيه يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء ، أوجب له ذلك عجبًا وزهوًا على أبناء جنسه...إلخ ، ولم يردف ابنُ حجر هذا الكلامَ بما جاء في الزغل مع أنه أصرح وأقوى وأشنع، ومن مؤرخ أكبر وأشهر من الآقشهري؛ أعني: الذهبي، مع أن الحافظ ابن حجر قد عزا زغل العلم للإمام الذهبي!

فهب أن مَن يحب ابن تيمية من المؤرخين سكت عن هذا النقد وكتمه ، فهل تمالأ عليه معهم مَن كان أشعريًّا أو صوفيًّا؟

وقد وجدنا الأشاعرة منهم يعيبون عليه في ترجمته ما خالف أشعريتهم، والصوفية يعيبون عليه حطه على طريقتهم، ثم ترحموا عليه، وما نقل أحد منهم عن الذهبي قدحه فيه لعجبه وكبره وفرط غرامه برئاسة المشيخة.

فأين كان كلام الذهبي هذا عند ترجمة هؤلاء لشيخ الإسلام، والموطن موطنه ، والوقت وقته؟!!

ليس هناك إلا جواب واحد :أن هذا الكلام لم يكن موجودًا في عصر أولئك المؤرخين، أو وُجِد ولم تصح نسبته إلى الذهبي عندهم ، فلم ينقلوه؟[1].

---

(١) لا يُعترض على هذا الوجه إلا بصنيع السخاوي في الإعلان بالتوبيخ حين عزا الزغل للذهبي، ونقل موضع النقد ليبرئ ساحة الذهبي من التعصب على خصوم ابن تيمية ردًّا على اتهام ابن السبكي له بذلك. ولكن هذا غايته أن هذا

وجه تاسع

أين كان النقد المظلم غائبًا عن أعين مبغضي ابن تيمية ليتناقلوه عند ذمهم ونقدهم له؟ ولنلق نظرة على كتاب "دحض شُبَه من شَبّه وتمرد وانتسب إلى مذهب أحمد لـ" تقي الدين الحصني(٨٣٩)[1]، فقد ملأ كتابه بالسب واللعن والافتراء والكذب على ابن تيمية، ولم يدخر

النقد كان موجودًا في كتاب "زغل العلم" ومعزوًّا إلى الذهبي عند السخاوي أو في عصره على أحسن الفروض ، وما ثَم ما يمنع من وقوع التزوير في هذه المدة المديدة بين عصر الذهبي وعصر السخاوي، وقد مضى معنا من الأدلة الدامغة على وقوع هذا التزوير ما يعرفه كل منصف، مع الإشارة إلى أن السخاوي أيضًا أثبت نسبة رسالة "النصيحة الذهبية" للذهبي، وبطلان هذه النسبة أوضح من الشمس في رابعة النهار!

(١)- وهو من أشهر من عرف ببغض ابن تيمية مع أنه لم يعاصره ، بل هو في طبقة تلاميذ تلاميذه، وهي بعينها طبقة شيوخ الحافظ ابن حجر، ولشهرة عداوته لابن تيمية فغالب من يترجم للحصني يذكر هذه العداوة وينبه عليها ، وقد جاء في كتابه المشار إليه بعد أن رد على من أثبت للخالق صفاته وانتصر لمذهبه الأشعري التعطيلي (ص ٣٣):" وكنت قد عزمت على أن أقتصر على ذلك؛ لأن في بعض ما ذكرته وقاية من المقت والمهالك ثم قيل لي وكرر عليّ أن أهل التشبيه والتجسيم والمزدرين بسيد الأولين والآخرين تبعًا لسلالة القردة والخنازير، لهم وجود وفيهم كثرة، وقد أخذوا بعقول كثير من الناس لما يزينون لهم من الإطراء على قدومتهم، ويزخرفون لهم بالأقوال والأفعال، ويموهون لهم بإظهار التنسك والإقبال على كثرة الصلاة والصوم والحج والتلاوة، وغير ذلك مما يحسن في قلوب كثير من الرجال لا سيما العوام المائلين مع كل ريح اتباع الدجال، فانقادوا لهم بسبب ذلك وأوقعوهم في أسر المهالك فرأيت بسبب هذه المكايد والخزعبلات أن أتعرض لسوء عقيدتهم قمعًا لهذا الزائغ (يقصد ابن تيمية، نعوذ بالله من الخذلان) عن طريق أهل الحق، وهم الأئمة الأربعة المقتدى بهم والمعول عليهم في جميع الأعصار والأقطار؛ لأنهم النجوم الذين بهم يهتدي وقد بالغ من جمع الأخبار من المتعبدين وغيرهم من العلماء كأهل مكة وغيرها أن أذكر ما وقع لهذا الرجل من الحيدة عن طريق هذه الأئمة ولو كان أحرفًا يسيرةً إما بالتصريح أو بالتلويح مشيرة، فاستخرت الله عز وجل في ذلك مدة مديدة ثم قلت: لا أبا لك. وتأملت ما حصل وحدث بسببه من الإغواء والمهالك فلم يسعني عند ذلك أن أكتم ما علمت، وإلا ألجمت بلجام من نار ومُقِتُّ وها أنا أذكر الرجل وأشير باسمه الذي شاع وذاع واتسع به الباع وسار بل طار في أهل القرى والأمصار، وأذكر بعض ما انطوى باطنه الخبيث عليه، وما عول في الإفساد بالتصريح أو الإشارة إليه، ولو ذكرت كثيرًا مما ذكره ودَوَّنَه في كتبه المختصرات لطال جدًا فضلًا عن المبسوطات، وله مصنفات أخر لا يمكن أن يطلع عليها إلا من تحقق أنه على عقيدته الخبيثة ولو عصر هو وأتباعه بالعاصرات، لما فيها من الزيغ والقبائح النحسات، قال بعض العلماء من الحنابلة في الجامع الأموي في ملأ من الناس: لو اطلع الحصني (يعني: نفسَه)، على ما اطلعنا عليه من كلامه لأخرجه من قبره وأحرقه، وأكد هؤلاء أن أتعرض لبعض ما وقفت عليه وما أفتى به مخالفًا لجميع المذاهب وما خطيء فيه وما انتقد عليه، وأذكر بعض ما اتفق له من المجالس والمناظرات وما جاءت به المراسيم العاليات وأتعرض لبعض ما سلكه من المكايد التي ظن بسببها أنه يخلص من ضرب السياط والحبوس وغير ذلك من الإهانات، وهيهات فأول شيء سلكه من المكر

والخديعة أن انتمي إلى مذهب الإمام أحمد، وشرع بطلب العلم وتعبد؛ فمالت إليه قلوب المشايخ، فشرعوا في إكرامه والتوسعة عليه؛ فأظهر التعفف، فزادوا في الرغبة فيه والوقوع عليه، ثم شرع ينظر في كلام العلماء ويعلق في مسوداته حتى ظن أنه صار له قوة في التصنيف والمناظرة، وأخذ يدون ويذكر أنه جاءه استفتاء من بلد كذا وليس لذلك حقيقة، فيكتب عليها صورة الجواب ويذكر ما لا ينتقد عليه وفي بعضها ما يمكن أن ينتقد إلا أنه يشير إليه على وجه التلبيس؛ بحيث لا يقف على مراده إلا حاذق عالم متفنن؛ فإذا ناظر أمكنه أن يقطع من ناظره إلا ذلك المتفنن الفطن، ثم مع ذلك شرع يتلقى الناس بالأنس وبسط الوجه ولين الكلام، ويذكر أشياء تحلو للنفس لا سيما الألفاظ العذبة مع اشتمالها على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فطلبوا منه أن يذكر الناس ففعل، فطار ذكره بالعلم والتعبد والتعفف، ففزع الناس إليه بالأسئلة فكان إذا جاءه أحد يسأله عن مسألة قال له: عاودني فيها، فإذا جاءه قال: هذه مسألة مشكلة ولكن لك عندي مخرج أقوله لك بشرط، فإني أتقلدها في عنقي فيقول: أنا أوفي لك. فيقول: أن تكتم عليِ، فيعطيه العهود والمواثيق على ذلك، فيفتيه بما فيه فرجه، حتى صار له بذلك أتباع كثيرة يقومون بنصرته، أن لو عرض له عارض، ثم إنه علم أن ذلك لا يخلصه إلا كان في بعض المجالس قال: إنا لله وإنا إليه راجعون قد انفتقت فتوق من أنواع المفاسد يبعد ارتتاقها، ولو كان لي حكم لكنت أجعل فلانًا وزيرًا وفلانًا محتسبًا وفلانًا دويدارًا وفلانًا أمير البلد؛ فيسمع أولئك وفي قلوبهم من تلك المناصب، فكانوا يقومون في نصرته، ثم أعلم أن مثل هؤلاء قد لا يقدرون على مقاومة العلماء إذا قاموا في نحره فجعل له مخلصًا منهم بأن ينظر إلى من الأمر إليه في ذلك المجلس فيقول له: عقيدة أمامك، فإذا قال كذا وكذا قال: أشهد أنها حق وأنا مخطيء، واشهدوا أني على عقيدة أمامك، وهذا كان سبب عدم إراقة دمه؛ فإذا أنفض المجلس أشاع أتباعه أن الحق في جهته ومعه، وأنه قطع الجميع. ألا ترون كيف خرج سالما حتى حصل بسبب ذلك افتتان خلق كثير لا سيما من العوام! فلما تكرر ذلك منه علموا أنه إنما يفعل ذلك خديعةً ومكرًا فكانوا مع قوله ذلك يسجنونه، ولم يزل ينتقل من سجن إلى سجن حتى أهلكه الله عز وجل في سجن الزندقة والكفر، ومن قواعده المقررة عنده وجرى عليها أتباعه التوقي بكل ممكن حقًّا كان أو باطلًا ولو بالأيمان الفاجرة سواء كانت بالله عز وجل أو بغيره، وأما الحلف بالطلاق فإنه لا يوقعه البتة ولا يعتبره، سواء كان بالتصريح أو الكناية أو التعليق أو التنجيز..."

إلخ كلامه، عامله الله تعالى بعدله فيما افتراه على شيخ الإسلام، والعجيب والمضحك من الكوثري قوله في تحقيقه لـ "ذيل تذكرة الحفاظ" (١ / ١٨٧) حول كلام الحصني في ابن تيمية :" وزهد الحصني وورعه وتحريه فيما يحكيه مما يستغني عن التنويه" !!، فليس لنا سوى أن نقول :"الطيور على أشكالها تقع"، وهذا علامة الإرث الصحيح، فانظر كيف اختلق المشركون الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ورموه بما هو منه براء، وقارنه بما رمى به الرافضة أبا بكر وعمر وسائر الصحابة، وثَلِّثْ بما رمى به أهل البدع العلمية والعملية أهل السنة والاتباع، تعلم أن ما يقال في حق شيخ الإسلام- رحمه الله ورضي عنه- جار على السَنن الإلهي والناموس الكوني ولستَ تجد لهما تبديلًا.

وبقى أن يقال: هل لو كان هناك للذهبي كلام من هذا النوع في حق ابن تيمية أيتركه الحصني وأشباهه ممن يختلقون الكذب على الرجل اختلاقًا حين يعييهم أن يجدوا ما يذمونه به؟

- تنبيه : ومن حيل الكوثري- عامله الله بما يستحق- أنه لا يكاد يذكر أحدًا ذم ابن تيمية وعرف بمعاداته له إلا أثنى على دينه وعلمه، ولا يذكر أحدا ممن مدحه إلا غمزه إن قدر على ذلك، وإلا عاب عليه في مدحه له، أو برر سبب ذلك بحيث يسقط في نظر القارئ الاعتداد بهذا الثناء.

وسعًا في تنقص شيخ الإسلام – رحمه الله – ، ومع ذلك، لم ينقل عن الذهبي فيما يتعلق بابن تيمية إلا قوله:" وذكر الشيخ الإمام العلامة شمس الدين الذهبي بعض محنته، وأن بعضها كان في سنة خمس وسبعمائة، وكان سؤالهم عن عقيدته وعما ذكر في الواسطية وطُلِب وصورت عليه دعوى المالكي، فسجن هو وأخواه بضعة عشر شهرًا ثم أخرج ثم حبس في حبس الحاكم وكان مما ادعى عليه بمصر أن قال: الرحمن على العرش استوى حقيقة وأنه تكلم بحرف وصوت، ثم نودي بدمشق وغيرها: مَن كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه" [(١)].

وكيف لم يذكره ابن حجر الهيتمي المكي (٩٧٤) وبغضه وتضليله لابن تيمية مشهور، كما في فتاواه الحديثية، وقد نقل فيها رسالة من أحد معاصري ابن تيمية يذمه فيها ويرميه بالحط على السلف.

فقائمة المبغضين، بل والمكفرين، ليست قصيرة؛ فكيف يغيب عنهم — وبعضهم من أهل العلم والاطلاع – نص عظيم في حقيقة عدوهم ابن تيمية، وهم يرمونه بهذه التهمة دائمًا، وهذا النص من إمام كالذهبي– مجمع على إمامته في نقد الرجال — يعتبر مستندًا مهمًّا وعظيمًا في تأييد كلامهم وأن لهم في كلامهم سلفًا بل رجلًا معدودًا في تلاميذ ابن تيمية ومُحبيه؟

فلماذا لم يفعل مبتدعة الأمس ما فعله مبتدعة اليوم ، فإنهم طاروا بهذا النقد كما أسلفنا وأذاعوه ، وتمسكوا به دليلًا خطيرًا وبرهانًا مبينًا على زيغ ابن تيمية ، أم أن مبتدعة اليوم أصبح عندهم ما لم يكن عند أسلافهم الأقدمين؟؟!!

وإذا كانت مثل هذه الأمور المذكورة آنفا لا تعد نكارةً وشذوذًا يوجبان رد نسبة هذا الكلام للذهبي ، فليس في الدنيا شيء يسمى نكارةً أو شذوذًا!!

---

(١)– "دفع شبه من شبه وتمرد" (ص٤٧) . وفي "الضوء اللامع" للسخاوي (٥ / ٢٦٩) عند ترجمة الحصني:" ...وذكره المقريزي في عقوده باختصار وقال: إنه كان شديد التعصب للأشاعرة منحرفًا عن الحنابلة انحرافًا يخرج فيه عن الحد، فكانت له معهم بدمشق أمور عديدة، وتفحش في حق ابن تيمية، وتجهر بتكفيره من غير احتشام، بل يصرح بذلك في الجوامع والمجامع بحيث تَلَقَّى ذلك عنه أتباعه واقتدوا به؛ جريًا على عادة أهل زماننا في تقليد من اعتقدوه، وسيعرضان جميعًا على الله الذي يعلم المفسد من المصلح، ولم يزل على ذلك حتى مات عفا الله عنه" ا.هـ

رأي الشيخ حماد الأنصاري في ثبوت رسالة " زغل العلم " للذهبي

سئل الشيخ حمَّاد : هل كتاب " زغل العلم " من مؤلفات الحافظ الذهبي ؟ فأجاب : أنا في شكٍّ من نسبة هذا الكتاب إلى الحافظ الذهبي؛ و ذلك لأن فيه كلامًا لا تصح نسبته للذهبي عندي.

و الذين نسبوه للذهبي أغلبهم يفرحون بنسبته إلى الذهبي؛ و ذلك لأن فيه جرحا لشيخ الإسلام ابن تيمية، الرجل الذي حمل أعباء العقيدة السلفية على كاهله.

و أيضا الرسالة الملحقة [1] بهذا الكتاب مشكوكٌ في نسبتها إلى الحافظ الذهبي، و لم ينسبها إليه إلا السخاوي، و معلومٌ أن السخاوي أشعريٌّ مقلّدٌ لأشياخه في مصر. و الله أعلم ". انتهى من مجموع مؤلفات الشيخ حماد الأنصاري (٧٥٩/٤).

(١) يقصد رسالة (النصيحة الذهبية) ، وتقدم في أول هذه الرسالة نقل إحدى الفتاوى في أدلة بطلان نسبتها للذهبي، وانظر : رسالة (أضواء على النصيحة الذهبية) ففيها تفنيد جيد لهذه النسبة.

تتمة نافعة في مخالفة ما جاء في الزغل لشهادة العلماء والحفاظ والمؤرخين المعاصرين لشيخ الإسلام ابن تيمية

هذه التهم القبيحة في حق ابن تيمية التي حوتها رسالة " زغل العلم" مخالفة لما نقله المؤرخون المشهورون ، ولما ذكره شيوخ الإسلام؛ الأئمة العدول الثقات الأثبات الحفاظ الذين خالطوا شيخ الإسلام ابن تيمية، وعرفوه عن قرب: كالمزي والبرزالي وعماد الدين الواسطي وابن القيم وابن كثير وابن عبد الهادي وأبي حفص البزار وابن سيد الناس وابن فضل العمري وابن الوردي والذهبي- نفسه- وغيرهم، حتى مخالفيه، ممن خالطه وعرفه؛ فكل هؤلاء وغيرهم ما ذكروا عنه العجب والكبر أو الغرام برئاسة المشيخة، بل نقل بعضهم من أحواله وأقواله ما يدل على التواضع الشديد والتبري من الدعاوي، وأثني عليه بعضهم بألقاب وصفات لا يمكن أن يلقب بها أو ينعت بها مَن فيه تلك الخصال الذميمة التي ذكرها ذلك الشانئ في زغله.

فماذا عَسى الأعداءُ أن يتقوَّلوا عليَّ، وعِرضي ناصِحُ الجيبِ وافِرُ ؟

وسأورد فيما يلي شيئا مما نقلوه لنا من أحواله وأقواله التي تدل على تواضعه وزهده في الرئاسة والمناصب ،بل والدنيا بأسرها ، ثم شيئا مما أثنوا به عليه من جميل الصفات، وحميد الخصال ، وفريد النعوت والألقاب، مما لا ينبغي أن يُطلق مثله على معجب ومتكبر وطالب رئاسة.

١- ما نُقِل من سيرة شيخ الإسلام مما يبرهن على ملازمته للتواضع والزهد في الرئاسة ومجانبة العجب والكبر:

يستطيع الإنسان أن يتكلف بعض الأخلاق ويظهر بغير ما هو عليه في نفس الأمر أحيانا ، لكنه لا يقدر أن يلازم شيئا ليس من طبعه ولا من أخلاقه على الدوام ، وإذا كان بإمكان المرء أن يخدع الغرباء بتكلفه وتصنعه فهو غير قادر على خداع من يلازمه ويعاشره ، وقد حكى لنا من خالط شيخ الإسلام أو لازمه من أخباره وأحواله ما يدل على تواضعه الجم، وزهده ،وورعه، وإخلاصه لربه، واستعانته به، وتبرئه من حول نفسه وقوته.

وإليك شيئا من ذلك:

– عقد الحافظ **عمر بن علي البزار**(ت ٧٤٩ هـ) في كتابه "الأعلام العلية" فصلا في إيثار شيخ الإسلام وتواضعه ، قال فيه:

" **وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك** ؛ كان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغنى الصالح والفقير، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء حتى أنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته جبرا لقلبه وتقربا بذلك الى ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله بل يقبل عليه ببشاشة وجه ولين عريكة ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيرا كان أو صغيرا، رجلا أو امرأة ، حرا أو عبدا، عالما أو عاميا ، حاضرا أو باديا، ولا يَجْبَهه ولا يحرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه بل يجيبه ويفهمه، ويُعرّفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط.

وكان يلزم التواضع في حضوره من الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلس غيره....

إلى أن قال:

" وأظهر لي من حسن الأخلاق **والمبالغة في التواضع** بحيث أنه كان إذا خرجنا من منزله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ولا يدع أحدا منا يحملها عنه وكنت أعتذر اليه من ذلك خوفا من سوء الأدب، فيقول: لو حملته على رأسي لكان ينبغي، ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

وكان يجلس تحت الكرسي ويدع صدر المجالس حتى إني لأستحي من مجلسه هناك وأعجب من شدة تواضعه ومبالغته في إكرامي بما لا استحق ورفعي عليه في المجلس ولولا قراءتي حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعظم حرمتها لما كان ينبغي لي ذلك.

وكان هذا حاله في التواضع والتنازل والإكرام لكل من يرد عليه أو يصحبه أو يلقاه حتى أن كل من لقيه يحكي عنه من المبالغة في التواضع نحوا مما حكيته وأكثر من ذلك، فسبحان من وفقه وأعطاه وأجراه على خلال الخير وحباه "[1].

وقال في موضع آخر قبل ذلك الفصل:

" وكان مجلسه عاما للكبير والصغير والجليل والحقير والحر والعبد والذكر والأنثى، قد وسع على كل مَن يَرِد عليه من الناس، يرى كل منهم في نفسه أنْ لم يُكرِم أحدا بقدره" [2].

- وقال العلامة **ابن فضل الله العمري** (ت ٧٤٩ هـ) في مسالك الأبصار في ترجمة طويلة لشيخ الإسلام:

" فقد كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث فيهبه بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيْئًا إلاَّ ليهبه ، ولا يحفظه إلاَّ ليُذْهِبَه ، كلُّه في سبيل البر ، **وطريق أهل التواضع لا أهل الكبر**" [3].

– وقال الحافظ ابن عبد الهادي (ت٧٤٤ هـ) :

"...وقال **بعض قدماء أصحاب شيخنا** وقد ذكر نبذةً من سيرته: أما مبدأ أمره ونشأته فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء راشفًا كؤوس الفهم، راتعًا في رياض التفقه ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور خصوصًا علم الكتاب العزيز والسنة النبوية ولوازمها، **ولم يزل على ذلك خلفًا صالحًا سلفيًّا متألهًا عن الدنيا، صينًا تقيًّا، برًّا بأمه، ورعًا، عفيفًا، عابدًا، ناسكًا، صوامًا، قوامًا، ذاكرًا لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، رجَّاعًا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقَّافًا**

---

(١) " الأعلام العلية" (ص ٥٠– ٥٢). وأقول: لو أن أخلاق كل المتكبرين والمغرورين على هذه الشاكلة التي كان عليها شيخ الإسلام كما نقلها البزار ، فليت جميع الخلق يصيروا متكبرين!!

(٢) " الأعلام العلية" (ص ٤٠)

(٣) "مسالك الأبصار" بواسطة "الجامع لسيرة شيخ الإسلام" (ص ٢٥٥).

عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم[1].

- **وقال ابن القيم (ت ٧٥١ هـ)** في كلامه على منزلة الخشوع:

" ... فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه، **ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه– من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره**"[2] ، ثم ساق ما سننقله من أقواله .

- **وقال عند كلامه على درجة** : " أن تقرب من يقصيك وتكرم من يؤذيك وتعتذر" "....**وما رأيت أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية**، قدس الله روحه! وكان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه. **وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قط وكان يدعو لهم** ،وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال : إني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام؛ فسُروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه؛ فرحمه الله ورضي عنه [3].

- **وقال ابن القيم أيضًا:**

" وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه

---

(٢)- "العقود الدرية"(ص٢١)٠

(٣)-" مدارج السالكين" (١ / ٥٢٤)٠

(٤)-" مدارج السالكين" (٢/٣٤٥)٠

ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها [1] !

- **وقال ابن القيم حاكيا عنه:**

أنه كثيرًا ما كان يقول: "ما لي شيء ولا مني شيء ولا فيَّ شيء" . وأنه كان إذا أثنى عليه في وجهه يقول : والله! إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا.

وأنه كان يقول : العارف لا يرى له على أحد حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا؛ ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب .

وكثيرًا ما كان يقول: ﴿إياك نعبد ﴾ تدفع الرياء، ﴿ وإياك نستعين﴾ تدفع الكبرياء.

وكان يقول : من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية

وكثيرًا ما كان يتمثل بهذا البيت :

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي [2].

وكان يقول : التكبر شر من الشرك فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى والمشرك يعبد الله وغيره [3].

ومما قاله نظمًا رحمه الله:

أنا الفقير إلى رب السماوات أنا المسَكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهى ظالمتي والخير إن جاءنا من عنده يأتي

لا أستطيع لنفس جلب منفعة ولا عن النفس دفع المضرات

---

(١) "الوابل الصيب" (ص٦٧).

ولو لم يكن لشيخ الإسلام من شاهد على تواضعه وزهده وإخلاصه وقيامه لله تعالى غير ابن القيم لكفانا، فشهادته أصدق عندنا من شهادة جماعة وجماعات، فكيف وهو لم ينفرد بذلك بل سبقه ولحقه فيه أئمة عدول مرضيون ؟

(٢) نقل عنه هذه الأقوال شيخ الإسلام ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/ ٥٤، ٤٣١، ٥٢٣، ٥٢٤).

(٣) "مدارج السالكين" (٢/٢٣٢).

وليس لي دونه مولًى يدبرني ولا شفيعٌ إلى رب البريات
إلا بإذن من الرحمن خالقنا رب السماء كما قد جاء في الآيات
ولست أملك شيئًا دونه أبدا ولا شريك أنا في بعض ذراتي
ولا ظهير له كيما أعاونه كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلبًا من دون خالقه فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملء الكون أجمعه ما كان منه وما من بعده يأتي
ثم الصلاة على المختار من مضر خير البرية من ماضي ومن آتى [1].

- ومما يتعلق بزهده في الرئاسة والمناصب:

- قال الشيخ **علم الدين البرزالي** (ت ٧٣٩ هـ) في تاريخه عند ذكر إحدى محن شيخ الإسلام ابن تيمية، والأسباب التي كانت وراءها :

" .....فحصل بسبب ذلك ضيق لجماعة مع ما كان عندهم قبل ذلك من كراهية الشيخ وتألمهم لظهوره وذكره الحسن، فانضاف شيء إلى أشياء. ولم يجدوا مساغا إلى الكلام فيه **لزهده، وعدم إقباله على الدنيا، وترك المزاحمة على المناصب**، وكثرة علمه، وجودة أجوبته وفتاويه، وما يظهر فيها من غزارة العلم وجودة الفهم.... " [2] .انتهى المقصود.

- وقال **ابن رجب** (ت ٧٩٥ هـ):

"وقد عُرض عليه **قضاء القضاة قبل التسعين ، ومشيخة الشيوخ** فلم يقبل شيئًا من ذلك. قرأت ذلك بخطه"[3] .

---

(١) " العقود الدرية" (ص ٣٩١).

(٢) انظر " العقود الدرية" (ص ٢١٤).

(٣) "ذيل طبقات الحنابلة" (١ / ٣٣٩). وابن رجب لم يعاصر ابن تيمية، لكن لقوله :" قرأت ذلك بخطه " استشهدنا به هنا.

- وقال الحافظ **عمر بن علي البزار (ت٧٤٩ هـ)**:

" **ولقد اتفق كل من رآه، خصوصا من أطال ملازمته، أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا حتى لقد صار ذلك مشهورا بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل مَن سمع بصفاته على وجهها،** بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ: مَن كان أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال :**ما سمعت بمثل ابن تيمية،** رحمة الله عليه.

وما اشتُهر له ذلك إلا لمبالغته فيه مع تصحيح النية ، وإلا فمَن رأينا من العلماء قنع من الدنيا بمثل ما قنع هو منها، أو رضي بمثل حالته التي كان عليها ؟لم يسمع أنه رغب في زوجة حسناء ولا سرية حوراء ولا دار قوراء ولا مماليك جوار ولا بساتين ولا عقار ، ولا شدّ على دينار ولا درهم ، ولا رغب في دواب ولا نعم ولا ثياب ناعمة فاخرة ولا حشم، **ولا زاحم في طلب الرئاسات** ولا رئي ساعيا في تحصيل المباحات ... " [1].

- وقال العلامة **ابن الوردي** (ت ٧٤٩ هـ) في مرثيته الشهيرة في ابن تيمية:

إمام لا ولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط

ولا جاراكم في كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط [2]

- وقال الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) يرثيه:

وهو عن الدنيا زوى نفسَه ... والله بالجنَّةِ قد عوّضـــــا

فماله في منصبٍ رغبَةٌ ... وعزمُه في ذاك ما استنهضا

كان إذا الدّنيا له عرضت ... بزُخرفِ من نفسها أعرضـــا

ولو رأى ذلك ما فاته ... مناصبُ من بَعضهنَّ القضـا [3].

---

(١) " الأعلام العلية " (ص ٤٥).

(٢) "العقود الدرية"(ص ٥٢٤).

(٣) " أعيان العصر وأعوان النصر "(١ / ٦٥).

٢- ما نُقِل من ثناء العلماء والأئمة المعاصرين لشيخ الإسلام عليه في دينه وأخلاقه بما يناقض ما جاء في زغل العلم:

لن أتعرض في هذه النقطة إلى ثناء العلماء على علوم ابن تيمية ومعارفه ، وإنما أقتصر على نقل ثنائهم عليه في دينه وأخلاقه- ولا أنقل ثناء إلا من معاصريه- بحيث يظهر أنه لا مناص من أحد أمرين: إما أن يكون ما ذكره الشانئ في زغله صحيحا ، ويكون كل أولئك العلماء والأئمة كاذبين في شهادتهم وثنائهم على ابن تيمية ، وإما أن يكون أولئك العلماء والأئمة صادقين في شهادتهم وثنائهم ويكون ما ذكره الشانئ كذبا وزورا؛ لأنه من غير المعقول أن يجتمع ثناء أولئك العلماء والأئمة وقدح ذلك الشانئ في رجل واحد ألبتة.

وإلى كلام معاصري شيخ الإسلام:

١- كان **الشيخ العارف بالله أبو عبد الله بن قوام** يقول: " ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية"(١).

٢- قال **الشيخ عماد الدين الواسطي (المعروف بابن شيخ الحَزَّامين (ت ٧١١هـ)** - وهو أسن من ابن تيمية وتوفي قبله بسبعة عشر عاما- في رسالة بعثها إلى تلاميذ الشيخ :

"... **فو الله، ثم والله، ثم والله!** لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية **علمًا وعملًا وحالًا وخلقًا واتباعًا وكرمًا وحلمًا وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته،** أصدق الناس عقدًا وأصحهم علمًا وعزمًا وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همةً، وأسخاهم كفًّا **وأكملهم اتباعًا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي**

(١) "ذيل طبقات الحنابلة" (٢ / ٣١٣).

النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، بحيث يشهد القلب الصحيح: أن هذا هو الاتباع حقيقة[1].

- وقال الشيخ **عماد الدين** أيضا:

"... شيخنا الإمام، الأمة الهمام، محيي السنة، وقامع البدعة، ناصر الحديث، مفتي الفرق، الفائق عن الحقائق، وموصلها بالأصول الشرعية للطالب الذائق، **الجامع بين الظاهر والباطن**، فهو يقضي بالحق ظاهراً وقلبه في العلى قاطن، **أنموذج الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين**، الذين غابت عن القلوب سيرهم، ونسيت الأمة حذوهم وسبلهم، فذكرهم بها الشيخ، فكان في دارس نهجهم سالكاً، ولموات حذوهم محيياً، ولأعنة قواعدهم مالكاً: الشيخ الإمام تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام ابن تيمية، أعاد الله علينا بركته، ورفع إلى مدارج العلى درجته" [2].

٣- قال **العلامة ابن الجزري** (ت ٧٣٩ هـ)، وهو ممن عاصر ابن تيمية ، وقد ذكر في تاريخه حوادث سنة ٧٢٨ :

" توفي الإمام العالم **العامل العلامة الزاهد العابد الورع الخاشع الناسك القدوة العارف** المحقق شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس ..."

ووصف جنازته إلى أن قال:

" والله العظيم: لقد رأيت الناس قاعدين على الطريق يمينًا وشمالًا الرجال والنساء، مختلطين كأنهم ينتظرون عبور السلطان، ومنهم من يبكي، ومنهم من يضج ويصيح، ومنهم يتأسف ومنهم يتفرج ...." إلخ كلامه.

٤- قال **الحافظ أبو الحجاج المزي** (ت٧٤٢ هـ) – وهو أسن من شيخ الإسلام- :

(٢) " شذرات الذهب" (٨٤/٦).

(٢) "العقود الدرية"(ص ٣١٠).

" ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله **ولا أتبع لهما منه** [1].

٥- قال الشيخ **علم الدين البرزالي** (ت ٧٣٨ هـ) في معجم شيوخه :

"أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، الشيخ تقي الدين أبو العباس، **الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه**، قرأ القرآن وبرع فيه والعربية والأصول، ومهر في علمي التفسير والحديث، وكان إمامًا لا يلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير أبهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كل قولٍ ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، وخوضه في كل علم كان الحاضرون يقضون منه العجب، **هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة، والاشتغال بالله تعالى، والتجرد من أسباب الدنيا، ودعاء الخلق إلى الله تعالى**.

وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يقرأ على الناس تفسير القرآن العظيم، **فانتفع بمجلسه، وبركة دعائه، وطهارة أنفاسه، وصدق نيته، وصفاء ظاهره وباطنه، وموافقة قوله لعمله، وأناب إلى الله تعالى خلق كثير**، وجرى على طريقةٍ واحدةٍ من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا ورد ما يفتح به عليه[2].

- وكتب **البرزالي** بخطه سماعَ طبقة على جزء فيه أحاديث منتقاة من جزء الحسن بن عرفة :

" قرأ هذه الأحاديث الثمانية **شيخنا وسيدنا الإمام العالم العلامة الأوحد القدوة الزاهد العابد الورع** الحافظ، تقي الدين، **شيخ الإسلام والمسلمين، سيد العلماء في**

(٢) " شذرات الذهب" (٦/٨٤).

(١) " الشهادة الزكية" (ص٤٨).

العالمين، حبر الأمة، مقتدي الأئمة، حجة المذاهب، مفتي الفرق، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية أدام الله بركته ورفع درجته" [١].

٦- قال **الحافظ ابن عبد الهادي** (ت٧٤٤ هـ) :

"... لم يبرح شيخنا رحمه الله في ازدياد من العلوم، وملازمة الاشتغال والإشغال، وبث العلم ونشره، والاجتهاد في سبل الخير، **حتى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم، والإنابة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله، وكثرة الخوف منه، وكثرة المراقبة له، وشدة التمسك بالأثر، والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم، والصبر على من آذاه، والصفح عنه والدعاء له وسائر أنواع الخير**[٢].

٧- وقال **الحافظ الذهبي** (٧٤٨):

" الشيخ **الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع، شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر** " [٣].

وقال "فو الله ما مقلت عيني مثله ولا رأى هو مثل نفسه.... **لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه** "[٤].

وقال: " **قدوة الأمة أعجوبة الزمان** بحر العلوم حبر القرآن تقي الدين **سيد العباد**"[٥].

وقال: "**رباني الأمة وفريد الزمان** وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين"[٦].

---

(١) " الشهادة الزكية" (ص٤٨).

(٣) "العقود الدرية"(ص٢٢)٠

(٤) "تذكرة الحفاظ" (٤ / ١٤٩٦)٠

(١) "المعجم المختص"(ص ٢٥)٠

(٢) نقله ابن عبد الهادي في "العقود الدرية"(ص ٣٢)٠

(٣) "العقود الدرية"(ص ٣٨).

وقال :"...وأُوذي في **ذات اللّه** من المخالفين، **وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره،** وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وَكَبَتَ أعداءه، وهدى به رجالًا من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالبًا، وعلى طاعته، **أحيا به الشام، بل والإسلام، بعد أن كاد ينثلم**"(١).

٨- كتب **العلامة ابن الزملكاني** (ت ٧٢٧ هـ) على كتاب "بيان الدليل على إبطال التحليل" لشيخ الإسلام:

" من مصنفات سيدنا وشيخنا وقدوتنا الشيخ السيد الإمام العلامة الأوحد البارع الحافظ **الزاهد الورع القدوة الكامل العارف تقي الدين، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، سيد العلماء، قدوة الأئمة الفضلاء، ناصر السنة، قامع البدعة، حجة الله على العباد، رادٌّ أهل الزيغ والعناد، أوحد العلماء العاملين آخر المجتهدين** "(٢) .

٩- كتب **العلامة تقي الدين السبكي** (ت ٧٥٦ هـ) إلى الحافظ الذهبي معتذرا عما كان منه في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية حين عاتبه الذهبي في ذلك:

" فالمملوك يتحقق قدره وزخارة بحره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده، وأنه بلغ من ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائمًا وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأَجَلّ، مع ما جمعه الله له من **الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان** بل من أزمان" (٣). انتهى

١٠- كتب **الحافظ صلاح الدين العلائي** (ت ٧٦١ هـ) بخطه على ثبت الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد بن خليل ما نصه:

---

(٤) " كذا نقله عنه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة" (٢/٣٩٠)، وهو غير المعجم المطبوع، فإن للذهبي ثلاثة معاجم.

(٥) "العقود الدرية"(ص٢٤)٠

(٦) "الرد الوافر (ص ٥٢)، و"شذرات الذهب" (٦/٨٣)

" وسمع بهاء الدين المذكور على الشيخين: **شيخنا وسيدنا وإمامنا فيما بيننا وبين الله تعالى، شيخ التحقيق السالك بمن اتبعه أحسن طريق، ذي الفضائل المتكاثرة والحجج القاهرة التي أقرت الأمم كافة أن هممها عن حصرها قاصرة، ومتعنا الله بعلومه الفاخرة، ونفعنا به في الدنيا والآخرة، وهو الشيخ الإمام العالم الرباني والحبر البحر القطب النوراني، إمام الأئمة، بركة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، شيخ الإسلام، حجة الأعلام، قدوة الأنام، برهان المتعلمين**، قامع المبتدعين، سيف المناظرين، بحر العلوم، كنز المستفيدين، ترجمان القرآن، أعجوبة الزمان، فريد العصر والأوان، تقي الدين إمام المسلمين، **حجة الله على العالمين، اللاحق بالصالحين، والمشبه بالماضين**، مفتي الفرق، ناصر الحق، علامة الهدى، عمدة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، ركن الشريعة ذو الفنون البديعة أبو العباس ابن تيمية [1].

١١- وقال العلامة **صلاح الدين الصفدي** (ت٧٦٤ هـ):

"...الشيخ الإمام العالم العلامة المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام نادرة العصر ذو التصانيف والذكاء والحافظة المفرطة ....وصار من أئمة النقد ومن علماء الأثر **مع التديّن والتأله والذكر والصيانة والنزاهة عن حطام هذه الدار والكرم الزائد**" [2].

١٢- كتب **الحافظ شمس الدين محمد بن يحيى بن محمد الحنبلي المقدسي ثم الصالحي** (ت ٧٥٩ هـ) بخطه في طبقة سماع لجزء الحسن بن عرفة:

" الشيخ الإمام، العالم العلامة الأوحد، البارع الحجة، الحافظ الزاهد، **العابد الورع، شيخ مشايخ الإسلام، بقية الأئمة الأعلام، إمام الأئمة، قدوة الأمة، علامة الزمان، فريد العصر والأوان، بحر العلوم**، تقي الدين أبي العباس أحمد... وذكر بقية نسبه وبقية المشايخ[1] .

---

(١) " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" (١/١٨٦).

تنبيه: ابن الزملكاني وتقي الدين السبكي والعلائي ثلاثتهم من المناوئين لابن تيمية، وقد شهدوا هم وغيرهم من أعدائه بفضله:

ومليحة شهدت لها ضراتها ... والفضل ما شهدت به الأعداء

(٢) " الوافي بالوفيات" (٢ / ٣٧٥).

١٣- وقال المؤرخ **الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي الحلبي** (ت ٧٧٩ هـ):

" ...شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس .....وكان تغمده الله برحمته يسحب ذيله على الطالب والوافد ، وعبابا لا تكدره دلاء الصادر والوارد ، وبحرا زاخراً في النقليات، وحبرا متلفعا بِحِبرات العقليات، وإماما في معرفة الكتاب والسنة، **وهماما لا يميل إلى حلاوة من المنة ، ذا ورع زائد، وزهد فرعه في روض الرِّضى مائد، وسخاء وشجاعة، وعزلة وقناعة**، وتصانيف مشهورة، وفتاوٍ أعلامها منشورة، ومعارف موادها وافية، **وإعراض عن الدنيا بالجملة الكافية، لا يكترث بنضرتها وبهجة نضارها، ولا يلتفت إلى المنقوش من درهمها ودينارها ، يصدع بالحق ويتكلم فيما جلَّ ودقَّ. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويثابر على إقامة الحقّ والحد، إن شكر أو لم يشكر**" [٢].

١٤- وكتب **بعض علماء بغداد كتابا إلى الملك الناصر يطلبون فيه الإفراج عن شيخ الإسلام**، ومما جاء في هذا الكتاب:

"...ثم إن هذا الشيخ المعظم الجليل والإمام المكرم النبيل : أوحد الدهر وفريد العصر ؛ طراز المملكة الملكية وعلم الدولة السلطانية لو أقسم مقسم بالله العظيم القدير : **أن هذا الإمام الكبير ليس له في عصره مماثل ولا نظير لكانت يمينه برة غنية عن التكفير ، وقد خلت من وجود مثله السبع الأقاليم إلا هذا الإقليم يوافق على ذلك كل منصف جبل على الطبع السليم** . ولست بالثناء عليه أطريه، بل لو أطنب مطنب في مدحه والثناء عليه لما أتى على بعض الفضائل التي هي فيه : أحمد ابن تيمية درة يتيمة يتنافس فيها تشترى ولا تباع، ليس في خزائن الملوك درة تماثلها وتؤاخيها، انقطعت عن وجود مثله الأطماع . ولقد أصم الأسماع وأوهى قوى المتبوعين والأتباع : سماع رفع أبي العباس – أحمد ابن تيمية – إلى القلاع .

---

(٣) "الشهادة الزكية" (ص٦٠).

(٢)- انظر تذكرة النبيه في أخبار المنصور وبنيه (ص ١٨٥)

وليس يقع من مثله أمر ينقم منه عليه إلا أنه يكون أمرا قد لُبس عليه ونُسب إلى ما يُنسب مثله إليه....

والذي عرض للملك بالتضييق على صاحب صواعه مع شدة الحاجة إلى غذاء الأرواح لعله لم يتحقق عنده **أن هذا الإمام من أكابر الأولياء وأعيان أهل الصلاح** ، وهذه نزغة من نزغات الشيطان..."[1] .

فتلك –كما رأيت أيها القارئ المنصف– شهادة الأئمة والحفاظ والعلماء والمؤرخين المعاصرين ، وحاشاهم أن تجتمع شهادتهم على الباطل، ففي ذلك النقد الأثيم الذي جاء في زغل العلم= ردٌّ لشهادة أولئك العدول الثقات الأفذاذ، فكيف تُقَبل نسبتُه إلى إمام ثقة حجة مأمون كالذهبي رحمه الله تعالى ، مع أنه تقدم من شهادة الذهبي نفسه وتزكيته لشيخ الإسلام ما يوافق شهادة أولئك الأئمة العدول ويناقض ما جاء بالزغل؟!

بل من يقرأ كلام ابن تيمية في السلوك، وتزكية النفوس، ودقائق أمراض القلوب، وما فتح الله عليه به في هذا الباب مما لا يُفتح به إلا على الربانيين العارفين ؛ يقطع ببطلان هذا الكلام في حق شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

ونحن نستدل على الرجل من شهادة معاصريه أو مما ترك من آثار.

قال القاضي عبد الرحمن التَّفِهْني الحنفي (ت٨٣٥ هـ): " إن الشيخ تقي الدين ابن تيمية **كان على ما نقل إلينا من الذين عاشروه، وما اطلعنا عليه من كلام تلميذه ابن القيم الجوزية، الذي سارت تصانيفه في الآفاق،** كان عالمِا، مفننًا، متقنًا، **متقللًا من الدنيا، معرضًا عنها،** متمكنًا من إقامة الأدلة على الخصوم حافظًا للسنة عارفًا بطرقها عالمِا بالأصلين: أصول الدين وأصول الفقه، قادرًا على الاستنباط لاستخراج المعاني، لا يلومه في الحق لومة لائم، قائمًا على أهل البدع المجسمة والحلولية والمعتزلة والروافض وغيرهم.

والإنسان إذا لم يخالط ولم يعاشر يستدل على أحواله وأوصافه بآثاره، ولو لم يكن من آثاره إلا ما اتصف به تلميذه ابن القيم الجوزية من العلم لكفى ذلك دليلا على ما قلناه. وما

(١) "العقود الدرية"(ص ٣٧٣)، و "الشهادة الزكية" (ص٦١).

نقل إلينا مما اجتمع في جنازته من الخلق التي لا تحصى حتى شبهت جنازته بجنازة الإمام أحمد – رضي الله عنه– عبرةٌ لمن اعتبر " [1]. انتهى.

وليس أمامنا ، والواقع ما عرفتَ، إلا أن نقول : هذا الكلام افتراء من الذهبي أو عليه.

ونحن ننزه الإمام الذهبي عن الأول[2] فلم يبق إلا الثاني ، وهو ما يجزم به كل من عرف ابن تيمية وعرف الذهبي .

– وأخيرًا؛ ففي هذا الكلام مخالفةٌ لما عُهد من سنة الله تعالى في خلقه من فضحه لأولئك الذين تخالف سرائرهم ظواهرهم ، وأنه– وإن علا شأنهم زمنًا ،فهو لا يطول بل يذهب جفاء كما كان عملهم رياءً ، وقد نظرنا فوجدنا دعوة شيخ الإسلام ومصنفاته قد سارت مسير الشمس ما أفلت ولن تأفل بإذن الله تعالى ، بل صار كل سُنِي عالةً على كتب هذا الرجل في معرفة مذهب أهل السنة والجماعة ، والرد على أهل البدع . ولا يُعرف الآن أحد غيره تَلْقَى كتبه من العناية والإقبال والمدارسة ما تَلْقَى كتبه، فإن دل هذا على شيء فهو يدل على الإخلاص وبركة المتابعة النبوية، نحسبه والله تعالى حسيبه ، ولا نزكي على الله أحدًا [3].

ولقد صدق الإمام أبو البقاء بهاء الدين السبكي (٧٧٧) حيث قال لمن سأله عن كلام الناس في ابن تيمية:

---

(١) "الشهادة الزكية"(ص٨٤). والتَّفِهْني: نسبة إلى تفهنا بالفتح ثم الكسر وسكون الهاء ونون بليدة بمصر من ناحية جزيرة قوسنيا معجم البلدان (٢ / ٣٧)

(٢) بلا ريب؛ فكيف إذا انضم إلى ذلك ثناؤه العاطر على شيخه شيخ الإسلام وقد نقلنا عنه نتفًا من ذلك دون استقصاء.

(١) وآه! كيف لو نشر الله تعالى أعداء شيخ الإسلام ومبغضيه الذين آذوه وسجنوه ورموه بكل عظيمة ونقيصة، فرأوا كيف بقي ذكره إلى الآن ومات ذكرهم ، وعاش كلامه ونُسي كلامهم، ورُفِعَ شأنه وبُتِرَ شأنهم، حتى إن منهم من لا يجيء ذكره الآن إلا إذا ذكر شيخ الإسلام فيقال: فلان كان من أعداء ابن تيمية أو الذي رد عليه ابن تيمية في الكتاب الفلاني. وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

"والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى؛ فالجاهل لا يدري ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به" [1].

وبعد ، فحيث تبين لنا أن هذا الكلام لا يثبت عن الذهبي سواء صحت نسبة رسالة "زغل العلم" له أو لم تصح، فليُعلم كذلك أن حاجة ابن تيمية إلى التبرئة من هذه التهم السخيفة ليست بأكبر من حاجة الذهبي إلى التبرئة من قولها؛ إذ إن محصل القول بنسبتها إليه: اتهامه في أمانته العلمية من جانب ، وتجهيله في إضفاء النعوت والألقاب على الرجال، وتقييمهم والحكم عليهم، من جانب آخر.

وإلى هنا انتهى ما أردت تجليته من أمر رسالة زغل العلم وما جاء فيها من اتهام للإمام البارع ابن تيمية يرحمه الله ، فإن أك قد بلغت ما إليه قصدت فذاك من فضل الله، وإن تك الأخرى؛ فالمرء يؤتى من قِبل نفسه والشيطان، وحسبي أني اجتهدت .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

(١) قال الحافظ ابن ناصر الدمشقي (٨٤٢) في كتابه الرد الوافر (ص ٥٠):
" حكى بعض من لقيته من الشيوخ العلماء أنه حضر مرة مع قاضي القضاة أبي البقاء شيخ الشافعية درسا ألقاه بالمدرسة الرواحية وهي داخل باب الفراديس من دمشق، فجاءه جماعة من طائفة القلندرية يسألونه فأمر لهم بشيء، وكان إذ ذاك حاكما بدمشق على القضاء بها ثم جاءه طائفة أخرى من الحيدرية وهو يتوضأ على بركة المدرسة المذكورة، فسألوه فأمر لهم بشيء، ثم جاء فصلى ركعتين، ثم قال: رحم الله ابن تيمية! كان يكره هؤلاء الطوائف على بدعهم. قال: فلما قال ذلك ذكرت له كلام الناس في ابن تيمية، فقال لي وكان ثم جماعة حاضرون قد تخلفوا بعد الدرس يشتغلون عليه: والله يا فلان! ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى؛ فالجاهل لا يدري ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به. قال: فأعجبني ذلك منه وقبلت يده ،وقلت له: جزاك الله خيرا ". انتهى

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	٤
أهمية ما جاء في هذه الرسالة عند المبتدعة.....	٩
تنبيه على الخلط بين رسالة " زغل العلم " و "النصيحة الذهبية".....	١١
وقفة قبل البدء.....	١٣
الكلام على نقد هذا القدح من جهتين.....	١٤
أولا : ما يتعلق بنسبة الرسالة برمتها للذهبي.....	١٥
ثانيا: ما يتعلق بنسبة هذا الكلام بخصوصه للذهبي على فرض ثبوت نسبة الرسالة له	٢٢
رد نسبة هذا النقد للذهبي من وجوه	٢٢
الوجه الأول.....	٢٢
الافتراض الأول.....	٢٢
الافتراض الثاني	٢٤
الترجمة التي كتبت في حياة ابن تيمية.....	٢٧
الترجمة التي كتبها بعد موته.....	٣٢
اعتراض وجوابه.....	٣٩
اعتراض آخر وجوابه.....	٤٠
وجه ثان.....	٤٤
وجه ثالث.....	٤٦
وجه رابع	٤٧
وجه خامس.....	٥٥
وجه سادس.....	٥٦
وجه سابع.....	٥٨

وجه ثامن.....	٥٩
وجه تاسع	٦٠
رأي الشيخ حماد الأنصاري في ثبوت رسالة "زغل العلم" للذهبي.....	٦٣
تتمة نافعة.....	٦٤
فهرس الموضوعات.....	٨١